جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

صور التسامى
فـي شـــعر الحطـيئة

الدكتور
مصطفى أحمد عبد اللاه جابر
مدرس الأدب والنقد فى كلية اللغة العربية بجرجا

العدد التاسع عشر
للعام ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م

الجزء الرابع

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٥م
الترقيم الدولى ISSN 2356-9050

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد .

فقد كان للكلمة في العصر الجاهلي أثر قوي، يعمل عمل السحر، وأحيانـاً أشد من نضح النبال، فكانت الكلمة ترفع وتخفض، وتجلى هذا واضحاً فـي كلمـة الحطيئة في بني أنف الناقة، فقد كانوا يعيّرون بهذا اللقب، حتى مـدحهم الحطيئـة فقال:

قَومٌ هُمُ الأَنفُ وَالأَذنابُ غَيرُهُمُ ∴ وَمَن يُسَوّي بِأَنفِ الناقَةِ الذَنَبا [١]

فصار هذا فخراً لهم بعد أن كان منقصة ومذمة .

ويُعد الحطيئة نموذجاً فريداً بين شعراء العربية، فلم يوجد شاعر هجا نفسه وأمه وأباه وعمه وخاله وقومه وضيفه إلا الحطيئة .

فقد أشاع في مجتمعه الخوف والذعر بسبب قسوته في الهجـاء، وبسـبب فجره وفحشه " كان الهجاء في أشعار الحطيئة هو التعبير الصـادق عـن نفيسـته المضطربة، فهو لا يفتعل الهجاء وإنما ينهل من غيابة الظلمة في وجدانـه، وهـو الأمر الذي جعل هجاءه يطغي على سائر فنونه الشعرية " [٢] .

ثم إن الحطيئة كان لا يدين بولاء لأحد، وإنما كانت حياته " تنقل مسـتديم من قبيلة إلى قبيلة، وتقلب من نسب إلى نسب، فتضاءلت في نفسه حوافز الشـرف والإباء، وانقبضت فيه عواطف الحياء، فراح يسعى وراء المنفعة، يتطلبها بشـعره

---

(١) ديوان الحطيئة، اعتنى به وشرحه / حمدو طمّاس: صـ٢١، ط: دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط : الثانية ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

(٢) سلسلة أدباء وشعراء العرب: دراسة وتحليل، شبكة: أبجد: أول شبكة اجتماعية عربية لمحبي القراءة، حقوق الطبع . أبجد ٢٠١٤م (اليكتروني) .

حيثما وجدت فيمدح من أعطاه، ويهجو من ردّه "[١] .

وقد اجتمعت عوامل عديدة شكلت نفسية الحطيئة فقد " نشأ الحطيئة في محيط لم يساعده نفسياً واجتماعياً وإنسانياً على تحقيق ذاته واستكمال إنسانيته، يضاف إلى ذلك ما منحه إياه القدر من دمامة في المنظر، وعسر في العيش، ومسغبة في الحياة، وشدة تقلب الناس وسرعة تغيير اتجاهاتهم ومنازعهم .. هذه العوامل كانت كفيلة بجعل هذا الشاعر أنموذجاً صارخاً للسخط على الحياة والناس والزمان، والانتقام – ولو بوسيلة الهجاء – من كل ما يعترض سبيله أو يحول بينه وبين تحقيق أغراضه " [٢] .

هذا ما شاع وانتشر، وتداوله النقاد والأدباء عن الحطيئة، فلم نر منه إلا وجهاً دميماً، ولساناً سليطاً، ونفساً مريضة .

ولكن من يتأمل شعر الحطيئة يجد أن له وجهاً آخر، لم تسلّط عليه أضواء النقد، ولم تتناوله أقلام الكتاب، ذلك الوجه هو: التسامي والتعالي عن النقائص، والتحلي والتخلق بأخلاق الفرسان، وبمكارم الأخلاق .

ومن هنا آثرت أن أتناول الحطيئة من هذه الزاوية الخافتة الخافية، زاوية التسامي وصوره في شعره، فجاءت الدراسة تحت عنوان :

" صور التسامي في شعر الحطيئة "

وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج التكاملي، حيث أفاد البحث من المنهج الفني لتحليل الجوانب الفنية للصور .

ومن المنهج المقارن، حيث قارنت – في بعض الأحيان – بين الصورة عند الحطيئة، وعند غيره من الشعراء .

---

(١) الحطيئة شاعر المدح والهجاء، يوسف بدّور، العروبة: العدد ١٤٤٤٩ – يومية – سياسية تصدر عن مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع حمص (اليكتروني) .

(٢) الحطيئة .. وجه مختلف / من ديوان العرب، إبراهيم النويري، مركز النور للدراسات، جميع الحقوق محفوظة ٢٠٠٨م (اليكتروني) .

كما أفاد البحث أيضاً من المنهج النفسي، في بيان الحالة النفسية التي أثّرت في الحطيئة، وشكّلت صوره .

وكذلك أفدت من المنهج الجمالي، حيث بينت جماليات الصورة عنده .

وقد جاء البحث في:

مقدمة، وتمهيد، ثم صور التسامي في شعره، فالخاتمة، فالفهارس .

- أما المقدمة فتناولت فيها ما ذاع واشتهر عن الحطيئة، ثم بينت الأسباب التي أدت إلى اختيار البحث، والمنهج المتبع في هذه الدراسة .
- أما التمهيد فقد جاء في مبحثين:

المبحث الأول: مفهوم التسامي، في اللغة، وعلم النفس، ثم أهميته .

المبحث الثاني: نبذة عن الحطيئة، وتناولت فيه: اسمه وكنيته، ولقبه، وصفاته وأخلاقه، وشعره، ووفاته .

- صور التسامي في شعر الحطيئة، وقد جاء في صور كلية، تندرج تحتها صور جزئية:

١- **صور الوفاء، وجاء تحتها عدة صور:**

الصورة الأولى: الوفاء للصاحبة في مقابلة غدرها .

الصورة الثانية: الوفاء للذئب في مقابلة غدره .

الصورة الثالثة: الوفاء للممدوح في مقابلة إكرامه .

الصورة الرابعة: صدق المحبة .

الصورة الخامسة: غيرته على نسائه وبناته وأهله .

٢- **صور التعزز، وجاء تحتها ثلاث صور .**

الصورة الأولى: التولي خشية الهوان .

الصورة الثانية: قطع الطمع من الغير .

الصورة الثالثة: الرضا بالجوع والتعزز في البعد، عن الشبع والهوان في القرب .

٣- **صور التجلد والتماسك، وجاء تحتها ثلاث صور .**

الصورة الأولى: التجلد والتماسك في الحب .

الصورة الثانية: التجلد والتماسك في الحرب .

الصورة الثالثة: الصبر على أذى الأهل والعشيرة .

٤- **صور التغني بكرم الأصل، وجاء تحتها صورتان:**

الصورة الأولى: كرم أصل الأب .

الصورة الثانية: كرم أصل القبيلة .

- ثم جاءت الخاتمة، وفيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث .
- ثم ختم البحث بالفهارس الفنية .

وبعد .. فهذا بحث، بذلت فيه الجهد، وتحريت فيه الدقة، بغية الوصول إلى الصواب والحقيقة، فإن كانا فمن الله الفضل والمنة، { إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْــلاَحَ مَــا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } .

الباحث

مصطفى أحمد عبد اللاه جابر

مدرس الأدب والنقد

في كلية اللغة العربية بجرجا

التمهيد

ويشتمل على مبحثين:

الأول : مفهوم التسامي .

الثاني: نبذة عن الحطيئة .

المبحث الأول

مفهوم التسامي

التسامي في اللغة:

يدور مصطلح (التسامي) في كتب المعــاجم حــول: التعــالي، والترفــع والتفاخر، والتباري .

ومنه: التسامي عن الرذائل: الترفع، والتعالي عنها .

وتسامى الرجال: تفاخروا .

وتساموا: تباروا [1] .

التسامي في علم النفس:-

عرّف علماء النفس التسامي بأنه: " العلو في التعامل الإنساني مع الــذات أولاً، ومع الآخر ثانياً، وهو يعني أيضاً إحداث تغيير في النهاية التي يستهدفها أحد

---

(1) ينظر: مقاييس اللغة لأحمد بن فارس: ٣ / ٩٨، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، ط: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، ولســان العرب لابن منظور: ٣٧٨/٦، صححه: أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبدي، ط: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط: الثانية ١٤١٧هـ ١٩٩٧م، والصحاح: تاج اللغــة وصــحاح العربية للجوهري: ٦ / ٢٣٨٢، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط: دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط: الرابعة ١٩٩٠م، والقاموس المحيط للفيروزآبادي صـ١٢٩٦، تحقيق: محمــد نعــيم العرقسوسي، الناشر: دار الرسالة، ط: الثامنة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

الدوافع الغريزية بأنواعها بحيث تصبح مقبولة اجتماعياً بعد أن قبلتها الذات وتآلفت معها، وأصبحت ذات قيمة " [١] .

ومعنى هذا أن الشخص ربما كانت خصاله ودوافعه وأغراضه غير مقبولة من مجتمعه، أو في قرارة نفسه يعلم بتدني أخلاقه ونوازعه، ولكنه يحاول أن يتلاءم مع ذاته هو حتى يرتقي بها، وبالتالي يقنع مجتمعه بها، وتصبح مقبولة من هذا المجتمع فيرضى عنها وعن صاحبها، وهو في أثناء ذلك يحرص على إخفاء النقص والتدني . فيعمل جاهداً على التخلص من المشاعر المكبوتة داخلياً ويصعدها ويظهرها بوسائل مقبولة اجتماعياً، حتى تصبح الطاقة المهيئة للنفس القوة الفعالة في مواجهة المصاعب الحياتية، أو الإبداع في العمل الخلاق [٢] .

" وهكذا فالتسامي هو عملية لا شعورية .. يتم تحقيقها تدريجياً عن طريق التمسك بالمثل العليا .. إزاء مواقف الحياة المختلفة " [٣] .

فمما لا شك فيه أن تلك العملية تحتاج إلى مجاهدة للنفس المجبولة على البخل – مثلاً – لتسخوا، والمفطورة على الجبن للتحلي بالشجاعة .. إلخ وتحاول أن تتسم بها بين الناس، ففي " عملية التسامي يحول الفرد دوافعه ورغباته غير المقبولة إلى مجالات شخصياً واجتماعياً، وهي بهذا الشكل تعد من أكثر العمليات النفسية انتشاراً في الكون، ويلجأ إليها معظم الناس بدون توجيه؛ لأنها تتم لا شعورياً من وعيهم لتحقيق الرغبات الكامنة داخل الفرد، وخصوصاً التي لا يمكن تحقيقها بشكل طبيعي مقبول ومفيد، لذا فإن معظم النتاجات الرائعة في الأدب والشعر والفن والرواية والقصة والرسم هي في الحقيقة مظهر من مظاهر الإعلاء

---

(١) التسامي في السلوك.. قوة للنفس والإنسان، د/ أسعد الإمارة، ط: مؤسسة الحوار المتمدن، العدد ١٢٦١ – ٢٠٠٥م (موقع إليكتروني)، وينظر: التسامي SUBLIMATION – عصام محمود ١٤ ديسمبر ٢٠٠٩م – منتدى الوطن والمهجر (اليكتروني) .

(٢) ينظر: السابق .

(٣) السابق .

والتسامي فيما يعتلج في داخل النفس من انفعالات غريزية، وجهت نحـو العمـل الخلاق والمفيد والنافع، ونلاحظ الإعلاء والسمو في السلوك الاجتماعي يظهر جلياً في سلوك المسالمة واللاعنف والتعقل في التعامل الاجتماعي، بينما نرى نقيض ذلك في السلوك العدواني الفردي والجمعي وتحريك غرائز العدوان نحو إيذاء الآخرين، وممارسة العنف والقسوة " [١] .

أهمية التسامي:

" يعتبر التسامي حيلة دفاعية، وهي نوع من أنواع السلوك أو التصـرفات التي تهـدف إلى تحقيق حدة التوتر النفسي داخل النفس الإنسانية " [٢] .

كما أن " التسامي – الإعلاء يعيد التوافق إلى النفس، وينعكس هذا التوافق في التعامل مع البيئة الاجتماعية الخارجية، فضلاً عن أن الشخص الذي يسـتخدم هذه الحيلة الدفاعية يكون مقبولاً لدى الناس بما يقدمه من انتاج وأعمـال فنيـة أو ممارسات سلوكية " [٣] .

كما ينص علماء النفس على أهمية التسامي " كوسيلة لتبديـد الصـراعات الداخلية، وتحويلها إلى مجالات مفيدة ومقبولة شخصياً واجتماعياً، كما أنها تمكـن الفرد من الإبقاء على هذه الصراعات مكبوتة وبعيدة عن الشعور "[٤].

إذن، فالتسامي " هو السمو في التعامل مع الذات، ومع الآخر والسعي نحو الكمال الأخلاقي " [٥] .

---

(١) السابق .
(٢) السابق .
(٣) السابق .
(٤) السابق .
(٥) التسامي: رفعة وصفاء – موقع: عالم الأمل .

المبحث الثاني
نبذ عن الحطيئة

اسمه، وكنيته:

الحطيئة، اسمه: " جَرْول بن أوس [بن مالك] بن جُؤية بن مخــزوم ابــن مالك بن غالب بن قطيعــة " ابن عبس بن بغيض بن رَيْث بن غطــفان ابن ســعد بن قيس بن عــيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان، وكنيته أبو مليكة " [١] .

لقبه:

لُقّب بالحطيئة، وقد اختلف في تلقيبه بذلك، فقيل: " لُقّب بذلك لقصره وقربه من الأرض .. وسمي الحطيئة لدمامته وقيل: لأنه ضرط بين قوم، فقي له: ما هذا ؟! فقال: حطيئة .. وقيل: لأنه كان محطوء الرجل، والرجل المحطوءة : التــي لا أخمص لها " [٢] .

صفاته وأخلاقه:

من خلال أقوال الرواة عن الحطيئة نجد أنه كان مشوّه الخَلْق والخُلُق، فقد " كان الحطيئة جشعاً سئولاً ماجناً دنيء النفس كثير الشر، قليل الخير، بخيلاً، قبــيح

---

(١) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر البغدادي: ٤٠٦/٢، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط: الرابعة ١٤١٨هـ ١٩٩٧م، وينظر: طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي: ١ / ٩٧، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، الناشــر: دار المدني بجــدة، من دون تاريــخ، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني: ١٠١/٢، تحقيق: د/ إحسان عباس، د/ إبراهيم السعافين، الأستاذ/ بكر عباس، دار صادر، بيروت، لبنــان، ط: الثالــثة ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م، وتجريد الأغاني لابن واصل الحمــوي: ٢٢٢/١، تحقيق: د/ طه حســين، إبراهيم الأبياري، مطبعة مصر ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م، وتاريخ الأدب العربي – العصر الإسلامي، د/ شوقي ضيف: ٢ / ٩٥، ط: دار المعارف، ط: العشرون ٢٠٠٢م .

(٢) خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي: ٢ / ٤٠٦، والشعر والشعراء لابن قتيبة: ١/ ٣٢٢، تحقيق وشــرح: أحمد محمد شــاكر، دار المعارف، القاهرة، ط: الثانية، وتجريد الأغــاني: ١/ ٢٢٢، وتاريخ الأدب العربي، د/ شوقي ضيف: ٢/ ٩٥، ٩٦.

المنظر، رث الهيئة، مغموز النسب، فاسد الدين " [١] .

ويقول عنه ابن قتيبة: " فإنه كان رقيق الإسلام، لئيم الطبع " [٢] .

كذلك اتسم بالطمع والرغبة، فحينما سئل في بعض المرات عن أشعر الناس " فأخرج لساناً دقيقاً كأنه لسان حية، فقال: هذا إذا طمع " [٣] .

وقال مرة أخرى: " هذا إذا رغب " [٤] .

وقد كان ذا شر وسفه، خافه الناس لسوء أخلاقه، وسلاطة لسانه، حتى همَّ سيدنا عمر بن الخطاب (ﷺ) أن يقطع لسانه لهجائه الزبرقان وغيره، فقال له: يا أمير المؤمنين: إني والله قد هجوت أبي وأمي وامرأتي، وهجوت نفسي، فتبسم عمر (ﷺ) [٥] واشترى منه أعراض المسلمين – كما قيل – بثلاثة آلاف درهم [٦] .

ويعلل د/ شوقي ضيف سبب غلبة الهجاء عليه، فيقول: " وقد ولد لأمة تسمى الضرّاء، كانت لأوس بن مالك العبسي، ونشأ في حجره مغموزاً في نسبه، وجعله ذلك قلقاً مضطرباً منذ أخذ يحس الحياة من حوله، وزاد في اضطرابه وقلقه ضعف جسمه وقبح وجه، إذ كانت تقتحمه العيون ولم يكن فيه فضل شجاعة يستطيع أن يتلافى به هوان شأنه في عبس على نحو ما صنع عنترة من قبله، ومن ثمّ نشأ يشعر بغير قليل من المرارة، ولعل هذا هو السبب في غلبة الهجاء عليه " [٧]

---

(١) خزانة الأدب للبغدادي: ٢ / ٤٠٨، والأغاني: ٢ / ١٠٢، ١٠٥، وينظر: تاريخ الأدب العربي، د/ شوقي ضيف: ٢ / ٩٤، ٩٥ .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة: ١ / ٣٢٢ .

(٣) السابق: ١ / ٧٩، ٣٢٤ .

(٤) العقد الفريد لابن عبد ربه: ٦ / ١٢٠، تحقيق: د/ مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م .

(٥) ينظر: الكامل للمبرد: ٢ / ٧٢٥، ٧٢٦، حققه وعلق عليه وصنع فهارسه: د/ محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، ط: الثالثة ١٤١٨هـ ١٩٩٧م .

(٦) ينظر: تجريد الأغاني: ١/ ٢٣٥ .

(٧) تاريخ الأدب العربي: د/ شوقي ضيف: ٢ / ٩٥، ٩٦ .

وكأن هذا ما دفع د/ طه حسين أن يلتمس له مبرراً ودافعاً لكــل الخصــال السيئة فيقول: " فكان الحطيئة مهاجماً من جميع نواحيه، مضطراً إلى أن يدافع عن نفسه من جميع نواحيه أيضاً، كان سيء الدين، فكان محتاجاً إلى أن يتقي عواقــب سوء الدين، كان سيء الحال، فكان محتاجاً إلى أن يرد عن نفسه عــوادي الفقــر والبؤس والإعدام، كان مشوّه الخلق، فكان مضطراً إلى أن يحمي نفسه من السخرية والاستهزاء، وكان كل شيء يقوي في نفسه سوء الظن بالناس، وقبح الرأي فــيهم، وكان ابتلاؤه للناس يزيده إسراعاً إلى ذلك وإمعاناً فيه، فأصبح الحطيئة شيئاً مخوفاً مهيباً يكره منظره، ويتقى لسانه، وتشترى الأعراض منه بالأموال . ولأمــر مــا تحدث الرواة بأن عمر بن الخطاب اشترى منه أعراض المســلمين بثلاثــة آلاف درهم " [١] .

شعره:

من يتصفح شعر الحطيئة يجد أنه ملك ناصية البيان، واعتلى سنام القــول، فجمع بين جزالة الألفاظ وقوتها، ورقة المعاني وحيويتها، وحُقّ له ذلك فقد تخرج " الحطيئة من مدرسة زهير التي كانت تعني بالتعبير وصقله وتصفيته من كل شائبة، كما كانت تعني بالمعاني ودقتها " [٢] .

ولذلك قال عنه ابن سلام الجمحي: " وكان الحطيئة متين الشــعر شــرود القافية، وكان راوية لزهير وآل زهير " [٣] .

ولأنه كان ينقح شعره ويدققه أثنى عليه النقاد، فذكروا أنه يكاد يخلو شعره من العيوب، فيقول عنه صاحب الأغاني: " كان الحطيئة متين الشعر شرود القافية

---

(١) حديث الأربعاء، د/ طه حسين: ١٣١/١، ط: دار المعارف، ط: الرابعة عشرة ١٩٩٣م .
(٢) تاريخ الأدب العربي: د/ شوقي ضيف: ٢ / ٩٦ .
(٣) طبقات فحول الشعراء: ١ / ١٠٤ .

.. وما تشاء أن تطعن في شعر شاعر إلا وجدت فيه مطعناً، وما أقل ما تجد ذلك في شعره " [١] .

كما يقول عن شعره أيضاً: " وما تشاء أن تقول في شعر شاعر من عيب إلا وجدته، وقلما تجد ذلك في شعره " [٢] .

وهذا ما ذكره أبو صفوان الأحوزي: " ما من أحد إلا لو شاء أن أجد في شعره مطعناً لوجدته، إلا الحطيئة " [٣] .

وهكذا نجد الرواة والنقاد أشادوا بشعر الحطيئة وتمكنه من فنه " ولعل الحطيئة كان مدركاً بشكل متميز سحر الكلمة، ودورها في إبراز الوجود – خاصة إذا كان وجوداً عفناً – فصنع لنفسه كياناً شعرياً تناقله الرواة في حلهم وارتحالهم " [٤] .

وفاته:

عاش الحطيئة حياة طويلة مليئة بالمتناقضات، فقد " عُمِّر دهراً في الجاهلية، وبقي في الإسلام حيناً " [٥] .

وقد ذاع صيته واشتهر في الإسلام أكثر منه في الجاهلية " وإذا علمنا أنه روي عنه أنه أدرك فرسان الجاهلية مثل زهير وزيد الخيل، فإنه بذلك نستشف أنه عاش قرابة أربعين سنة أو أكثر قليلاً في تلك الحقبة، وقد توفى في سنة ستين للهجرة أو تسع وخمسين في رواية أخرى، فإنه بذلك شارف على المائة من العمر، فتوزعت على شطري حياته في الجاهلية والإسلام " [٦] .

---

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني: ٢ / ١٠٦، ١٠٧ .
(٢) السابق: ٢ / ١٠٥ .
(٣) تجريد الأغاني: ١ / ٢٢٢ .
(٤) بنية الصورة الفنية في شعر الحطيئة، إعداد: سمية الهادي صـ٥٣ مذكرة مقدمة لنيل الماجستير، جامعة المسيلة، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم اللغة العربية وآدابها ٢٠٠٧/٢٠٠٨م .
(٥) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي: ١ / ١١٠، ١١١ .
(٦) ديوان الحطيئة، اعتنى به وشرحه: حمدو طمّاس صـ٧، ٨ .

(١) صور الوفاء

تـوطئة:

قبل أن نتناول صور الوفاء عند الحطيئة، لابدّ أن نشير إلـى أن الحطيئـة تفرّد عن غيره من الشعراء بعدة أمور منها:-

١- أن السمت السائد، والمظهر العام للحطيئة أنه هجَّاء، وقد يتساوى في هـذا مع بعض الشعراء، ولكنه يتفرّد عنهم بأنه لم يسلم من لسانه أحد، حتى إنه هجا نفسه، وأمه وأباه وزوجه، من ذلك قوله في هجاء نفسه:

أَبَـت شَـفَتايَ اليَـومَ إِلّـا تَكَلُّمـاً ∴ بِشَرٍّ فَما أَدري لِمَـن أَنـا قائِلُـه
أَرى لِيَ وَجهـاً شَـوَّهَ اللَـهُ خَلقَـهُ ∴ فَقُبِّحَ مِن وَجـهٍ وَقُـبِّحَ حامِلُـه[١]

وقال في هجاء أمه:

جَزاكِ اللَـهُ شَـرّاً مِـن عَجـوزٍ ∴ وَلَقّـاكِ العُقـوقَ مِـنَ البَنينـا
تَنَحَّـي فَاجلِسـي مِنّـا بَعيـداً ∴ أَراحَ اللَـهُ مِنـكِ العالَمينـا
أَغِربـالاً إِذا اِستودِعتِ سِـرّاً ∴ وَكانونـاً عَلـى المُتَحَـدِّثينا
أَلَم أوضِح لَـكِ البَغضـاءَ مِنّـي ∴ وَلَكِـن لا إِخالُـكِ تَعقِلينـا
حَياتُكِ مـا عَلِمـتُ حَيـاةُ سـوءٍ ∴ وَمَوتُكِ قَـد يَسُـرُّ الصـالِحينا[٢]

وقال في هجاء أبيه وأمه أيضاً:

وَلَقَد رَأَيتُـكِ فـي النِسـاءِ فَسُـؤتِني ∴ وَأَبا بَنيكِ فَسـاءَني فـي المَجلِـسِ
إِنَّ الـذَليلَ لَمَـن تَـزورُ رِكابُـهُ ∴ رَهطَ اِبنِ جَحشٍ في مَضيقِ المَحبَسِ
رَهطُ اِبنِ جَحشٍ في الخُطـوبِ أَذِلَّـةٌ ∴ دُسمُ الثِيابِ قَنـاتُهُم لَـم تُضـرَسِ

---

(١) ديوان الحطيئة، حمدو الطماس صـ١١٨ .

(٢) السابق: صـ١٤٤ .

قَبَحَ الإِلَهُ قَبيلَةً لَم يَمنَعوا ∴ يَومَ المُجَيمِرِ جارَهُم مِن فَقعَسِ
أَبلِغ بَني عَبسٍ بِأَنَّ نِجارَهُم ∴ لُؤمٌ وَأَنَّ أَباهُمُ كَالهِجرِسِ
يُعطي الخَسيسَةَ راغِماً مَن رامَها ∴ بِالضَيمِ بَعدَ تَكَلُّحٍ وَتَعَبُّسِ[1]

فكل هذا يدل على لؤم نفس، وخسة طبع، ودناءة لا توجد عند غيره من الشعراء، ومن كان بهذه الصفة فلا يتوقع منه وفاء لأحد، وإن ذكر الوفاء لنفسه أو وصف نفسه بالوفاء، فهذا يكون منه على غير حقيقته .

٢- من ينعم النظر في شعر الحطيئة، ويتفقد حياته يجدها كلها قامت على الارتحال وطلب الجوار، والاعتماد على الغير، فهو سريع التنقل والتحول من جوار إلى آخر، ومع ذلك لم يحفظ حقاً لمجير، فنراه يجهوه بعد أن يمدحه، كما فعل مع الزبرقان بن بدر، وكما فعل مع عيينة وخارجة ابني حصن بن حذيفة بن بدر وغيرهم، وهذا أيضاً يؤكد أن سمة الوفاء عنده غير موجودة إلا على سبيل الزعم والادعاء.

٣- أن الحطيئة سبب ذعراً وخوفاً لمجتمعه، فكان الناس يتقونه مخافة لسانه وشره،فقد " كان الحطيئة جشعاً سؤولاً ماجناً، دنيء النفس، كثير الشر، قليل الخير، بخيلاً قبيح المنظر، رث الهيئة، مغموز النسب، فاسد الدين " [2] .

ولكن مع كل هذه الأشياء التي تفرّد بها الحطيئة، نجد له وجهاً آخر إيجابياً مشرقاً؛ لأنه من غير المعقول أن يلزم إنسان صفة واحدة في حياته كلها، فيلزم – مثلاً – الشر دائماً، فيكون شيطاناً، أو الخير دائماً فيكون من الملائكة، وإنما هو يجمع بين الأمرين، ولكن قد يتغلب جانب على الآخر، فيشتهر به ويُعرف، وهذا ما حدث مع الحطيئة،تغلب جانب الشر عنده فاشتهر به .ولكنه– مع ذلك – حاول أن يظهرفي كثير من شعره خلاف ذلك، فتسامى ووصف نفسه بالوفاء، وأن هذا الوفاء سجية فيه وطبع

---

(١) ديوان الحطيئة، حمدو الطماس صـ ٨٦، ٨٧ .

(٢) الأغانى: ٢ / ١٠٢، ١٠٥، وخزانة الأدب: ٢ / ٤٠٨، وتاريخ الأدب العربى، د / شوقى ضيف: ٢ / ٩٥، ٩٦ .

ومحاولة الحطيئة إبراز صفة الوفاء عنده جاءت في عدة صور منها:

الأولى: الوفاء للصاحبة في مقابلة غدرها .

الثانية: الوفاء للذئب في مقابلة غدره .

الثالثة: الوفاء للممدوح في مقابلة إكرامه .

الرابعة: صدق المحبة .

الخامسة: غيرته على نسائه وبناته وأهله .

ويلاحظ أن الصور الثلاث التي جاءت في وفائه للذئب والصاحبة والممدوح قد جاءت في مديحه لبغيض، وتحوله عن الزبرقان، وكأنه – كما سنرى – يحاول أن يدفع عن نفسه وعن الممدوح صفة الغدر والخيانة، فسلك في سبيل ذلك مسالك عدة، وكأنه يريد أن يقول: إذا كنت وفيًّا للصاحبة مع غدرها، وللذئب مع غدره أيضاً، فالأوجب والأولى أن أقابل إكرام بغيض بوفاء أكثر .

وهذا نوع من الاحتجاج العقلي عن طريق القياس بالأولى .

الصورة الأولى: الوفاء للصاحبة في مقابلة غدرها:

يقول الحطيئة في مطلع قصيدته التي يمدح بها بغيضاً، ويدفع عنه، وعن نفسه الغدر والخسة الخيانة [١]:

طافَت أُمامَةُ بِالرُكبانِ آونَةً ∴ يا حُسنَهُ مِن قَوامٍ ما وَمُنتَقَبا
إِذ تَستَبيكَ بِمَصقولٍ عَوارِضُهُ ∴ حُمشِ اللِثاتِ تَرى في غَربِهِ شَنَبا
قَد أَخلَقَت عَهدَها مِن بَعدِ جِدَّتِهِ ∴ وَكَذَّبَت حُبَّ مَلهوفٍ وَما كَذَبا[٢]

---

(١) الديوان: صـ١٧، ١٨ .

(٢) معاني الكلمات: طاف يطيف: من طيف الخيال. الركبان: أصحاب الإبل. آونة: جمع مفرده أوان: وهو الوقت. المنتقب: هو موضع النقاب. نستبيك: تسلب عقلك. مصقول: يريد ثغراً مصقولاً. العوارض: يراد بها الرباعيات والأنياب. خمس اللثاث: أي قلة لحم اللثات. غربه: حدّه، وقد أراد به حد الأسنان. الشنب: يراد به الأسنان ورقتها وعذوبتها وكثرة مائها .
ينظر: الديوان: صـ١٧، ١٨ .

هذه القصيدة أول شـــعر قاله الحطيئة في مديـــح بغيـــض بن عـــامر ابـــن شماس بن لأي بن جعفر(بنو أنف الناقة) وفيه يعرّض بالزبرقان بن بدر، ابن عـــم بغيض .

وذلك أن الزبرقان لقي الحطيئة في المدنية، حينما كان يدفع صدقات قومـــه إلى سيدنا عمر بن الخطاب (ﷺ) فَعرفه الزبرقان، وعرض عليه أن ينزل عنـــده، ويطعمه التمر واللبن، فرضى الحطيئة، فأرسله إلى حيّه، وأرسل إلـــى امرأتـــه أن أكرميه، وكان الحطيئة رجلاً دميماً، سيء الهيئة، فلما قدم على امـــرأة الزبرقـــان جفته ولم تدر من هو .

ولما رجع الزبرقان أراد أن يتحول عن منازله تلك، فقال للحطيئة: إن شئت أن نبدأ بك فننقلك أنت وأهلك فنضعكم في الدار، ثم نأتيكم بعد فعلت، وإن شئت أن نرحل نحن فإذا عرفنا المنزل ومكاننا رددنا الدواب إليك فأتيتنا، فقال الحطيئة: بل ارتحلوا، فإذا نزلتم رددتم الركاز فنزلت عليكم، ففعل ذلك الزبرقان . فاغتنم بنـــو قريع بن عوف فرصة بقاء الحطيئة وحيداً – وكانوا يحسدون الزبرقـــان – فأتـــاه بغيض وهو ينتظر ركائب الزبرقان، وقال له: يا حطيئة، هل لك أن تنتقـــل إلـــيّ فأعطيك وأحبوك، وأضمن لك مالك من الدهر، فأيما بعير هلك فلك اثنان مكانـــه، وأيما شاة هلكت لك اثنتان مكانها، فطمع الحطيئة في ذلك وانتقل إلى بغيض، ولما رجع الزبرقان أتى بغيضاً وقال له: ما حملك على جاري يا بغيض ؟

قال اختارني . قال: أكذلك هو يا حطيئة ؟

قال: نعم .

قال: وما حملك على ذلك ؟ هل رأيت أمراً تكرهه ؟

فانصرف عنه الزبرقان، ثم خاصمهم إلى عمر، فقال عمر: أقيمـــوه بـــين الحيين، ثم ليَدْعُهْ الحيّان، فأينما ذهب فهو أحق به، ففعلوا ذلك، فأنشأ الحطيئة ينطق

بالزبرقن في أشعاره [١] .

ولذلك نجد الحطيئة في كل مدائحه لبغيض يعتذر لنفسه وللممدوح، ثم يعرّض بالزبرقان، ويتهمه بأنه قصّر في حقه، وتركه وحيداً حتى كاد أن يهلك .

وقصيدة المديح عند القدامى، يوظف فيها الشاعر كل شيء في خدمة غرضه، فالحيوان والصحراء، ومشقة الرحلة، وموارد الهلاك .. الخ، كل تلك الأغراض تصب في خدمة المديح، وتتناول خلال الممدوح وخلائقه وشيمه، ولكن بصور شتى عن طريق الإسقاط والرمز .

وسأحاول أن أبيّن ذلك في هذه القصيدة .

فحينما أراد الحطيئة في هذا المطلع أن يبين وفاءه في مقابلة غدر صاحبته، رسم لنا لوحة جميلة فاتنة لهذه المرأة، عن طريق الاستدعاء والخيال (طافت) وقد رسم صورة حسية لجمال هذه المرأة ليهيج المشاعر والأحاسيس، وليبين المعاناة التي هو فيها .

فعلى عادة الجاهليين يوظف الخيال، خيال المحبوبة الذي يطرق ليلاً بعد أن يهجع الركب، وينام السمّر، ولشدة تعلقه بها لم تزره في ليله مرة واحد، بل مرات متعددة (آونة) فكأنها طافت به مراراً، ثم يتعجب من حسن قوامها، ومن جمال وجهها، وكأنها من شدة جمالها يستطيع أن يرى وجهها في ظلام الليل، ثم يتعجب منه .

ثم ينتقل فجأة (إذ) إلى الأثر الذي تحدثه في محبوبها فتأسر عقله وقلبه بثغرها وريقها، كما تفعل الخمر في لبّ شاربها، ونلاحظ أنه لم يقل مثلاً: تسبيك، وإنما قال " تستبيك " وهذا دلالة على تمكنها وسيطرتها الكاملة على العقل، وسلبها الإرادة، وهذا الأمر يتجدد حدوثه كلما اقتربت من ثغرها العذب .

ثم بعد أن بيّن جمالها وأثره، ينتقل بنا سريعاً مرة أخرى إلى عدة أمور محققة تفعلها في أسيرها .

---

(١) ينظر: ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت صـ٣، ٤، تحقيق: د/ نعمان محمد أمين طه، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط: الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

الأمر الأول: أنها أخلفت عهدها من بعد جدّته، ودخول " قد " على الفعل الماضي يدل على تحقق هذا الفعل وثبوته، فقد أخلفت الوصل وهجرته بعد أن كانت خيال الوصل متينة، وهذا من عادة العرب في التعبير عن الهجر، وقطع الوصل، من ذلك قول دريد بن الصمة:

أَرَثَّ جَديدُ الحَبلِ مِن أُمِّ مَعبَدٍ ∴ بِعاقِبَةٍ وَأَخلَفَت كُلَّ مَوعِدِ [١]

الأمر الثاني المحقق: أنها كذّبتْ حبه إياها، ونلاحظ أنه أضاف الحب إلى ملهوف (حب ملهوف) والمضاف والمضاف إليه كالشيء الواحد، ولا يخفى أن الملهوف هو: المتحسر المتلهف على شيء فاته بعد أن شارف عليه [٢] .

الأمر الثالث المحقق: أنه نفى عن نفسه الكذب، فهو باق على حبه إيّاها، وفيٌّ رغم غدرها وخداعها .

ونلاحظ أنه بنى الكلام على الخطاب (تستبيك – ترى ..) كما بناه على الغيبة أيضاً (طافت – يا حسنه – عوارضه – غربه – أخلقت – عهدها – جدّته – كذبت – وما كذب) وكأني به يخاطب شخصين: الأول، حاضر أمامه وهو بغيض والآخر، غائب ليس له حضور، وهو الزبرقان .

وكأنه يرمز بتلك المرأة الجميلة المخادعة الغادرة إلى الزبرقان، فقد منّاه البن والتمر، ثم خدعه وتحول عنه، وأخلق عهده .

ثم يدفع عن نفسه الغدر والخيانة بأنه ملهوف محتاج، أوشك هو وأولاده على الهلاك، ومع ذلك لم يكذب أو يخدع، وإنما بقي على وفائه وصدقه، وهذا من تسامي الحطيئة وتعاليه .

والحطيئة هنا يدعي لنفسه الوفاء لهذه الصاحبة، وأنه باق على حبها، بل وملهوف إلى قربها ووصلها ...مع أنها أنكرت حبه وكذبته وابتعدت عنه... وكأنه يريد أن يبين أنه صاحب وفاء ممتد لا ينقطع حتى مع وجود أسباب انقطاع الوفاء .

---

(١) ديوان دريد بن الصمة صـ٥٧، تحقيق: د/ عمر عبد الرسول، ط: دار المعارف ١٩٨٥م .

(٢) لسان العرب لابن منظور: ١٢ / ٣٤٣ .

الصورة الثانية: الوفاء للذئب في مقابلة غدره:

ينتقل الحطيئة هنا إلى صورة أخرى من صور وفائه لمن لا يستحق، وهو الذئب فيقول [١]:

وَبَلـــدَةٍ جُبتُهـــا وَحـــدي بِيَعمَلَـــةٍ ∴ إِذا السَرابُ عَلى صَحرائِها اِضطَرَبا
بِحَيثُ يَنسى زِمـــامَ العَـــنسِ راكِبُهـــا ∴ وَيُصبِحُ المَرءُ فيها ناعِســـاً وَصِـــبا
مُستَهلِكِ الوِردِ كَالأُسدِيِّ قَـــد جَعَلَـــت ∴ أَيدي المَطِـــيِّ بِـــهِ عادِيَّـــةً رُغُبـــا
يَجتـــازُ أَجـــوازَ قَفـــرٍ مِـــن جَوانِبِـــهِ ∴ تَـــأوي إِلَيـــهِ وَتَلقـــى دونَـــهُ عَتَبـــا
إِذا مَخـــارِمُ أَحيـــاءٌ عَرَضـــنَ لَـــهُ ∴ لَم يَنبُ عَنها وَخافَ الجَورَ فَاِعتَتَبـــا
وَالذِئبُ يَطرُقُنـــا فـــي كُـــلِّ مَنزِلَـــةٍ ∴ عَدوَ القَـــرينَينِ فـــي آثارِنـــا خَبَبـــا
قالَت أُمامَـــةُ لا تَجـــزَع فَقُلـــتُ لَهـــا ∴ إِنَّ العَزاءَ وَإِنَّ الصَـــبرَ قَـــد غُلِبـــا
إِنَّ اِمـــرَأً رَهطُـــهُ بِالشـــامِ مَنزِلُـــهُ ∴ بِرَملِ يَبرينَ جاراً شَدَّ ما اِغتَرَبـــا[٢]

يرسم الحطيئة هنا لوحة لرحلته التي قطعها في الصحراء بغية الوصول إلـــى الممدوح، وهي رحلة شاقة مهلكة، نرى فيها السراب مضطرباً يحسبه الركبان مـــاءً،

---

(١) الديوان، حمدو طماس صـــ١٨، ١٩ .

معاني الكلمات: اليعملة: الناقة النجيبة التي طبعت على العمل، وبذل الجهد. العنس: الناقة الصلبة القوية. وصبا: الوصف: أي الرجل الذي يجد تكسّراً وفترة في عظامه وجيده. الورْد: هو طريق الماء. ومستهلك الورد: أي الورّاد الذين يردونه، ويستهلكون أنفسهم في السير إليه. الأُسدي: أتى بها من سَدَى الثوب وستاه، وقد أراد به أنه طريق ممتد. عاديّة: قديمة. رُغُبا: واسعة. الأجـــواز: جمع مفرده جَوْز، وجوز كل شيء: وسطه. العتب: جمع مفرده عَتَبة، والعتبة: الارتفاع والغلـــظ يكون في الأرض. المخارم: جمع مفرده مَخرَمَ: وهو الطريـــق فـــي غلـــظ الأرض. الأحيـــاء: الواضحة. عرض له: أي بهذا الطريق. لمن ينب: أي لم يرتفع الأرض عنها. الجَوْر: يراد بـــه الغلظ من الأرض. يطرقنا: يأتينا ليلا. القرينان: البعيران المقترنان في حبل واحد. رمل يبـــرين: لبني سعد، وهي قرية بالبحرين بحذاء الأحساء كثيرة النخل والعيون، وكان الحطيئة قـــد جـــاور بغيضاً بها. شدّما اغترب: أي ابتعد عن أهله واغترب .

(٢) ينظر: الديوان: حمدو طماس صـــ١٨، ١٩

ولشدة الخوف نرى راكب الناقة القوية خائفاً يترقب، قد أصابه الجهد والإعياء فـألقى زمام راحلته؛ لأن ورّاد هذا الطريق وسالكيه هالكون؛ لطوله، ولانعدام الماء فيه .

ثم يجسد لنا هذا الطريق ويشخصه وكأنه إنسان يحرص على حياته، فيبتعد عن موارد الهلكة، فهو طريق يمر فيقطع السهل والجبل، والطرق المتشـعبة مـن حوله (يجتاز أجواز قفر من جوانبه ..) .

ثم يصوره كأنه إنسان – كما قلت – يخـاف التيـه، ويتمسـك بـالطرق الواضحة البينة، ولا يرجع عنها (إذا مخارم أحياء عرضن له .. لـم ينـب عنهـا وخاف ..) ثم تأتي لنا بعد ذلك صورة الذئب الجائع المتمسك بالحياة، الخائف مـن الهلاك أيضاً: والذئب يطرقنا ..

وكأن الحطيئة اجتمع عليه هلاكان: الصحراء القاحلـة المهلكـة، والـذئب الجائع الباحث عن الفرية التي تقيم أوده .

ويلاحظ أن الجميع هنا متمسك بالحياة (الطريق – الذئب – الشاعر) وهنـا يبرز تسامي الحطيئة، فعادات الشعراء مع الذئب والطيور والحيوانات كثيرة، منها:

أولاً : من عادة الشعراء أن يذكروا إكرام الذئب أو الوحش أو الطير، فمثلا المرقش الأكبر يكرم الذئب ويلقي له الشواء، وهذا دليل على كرمه، فيقوله:

ولمَّـا أَضـأْنا النَّـارَ عِنْـدَ شِـوائِنا ∴ عَرانا عليها أَطْلَـسُ اللَّـونِ بـائِسُ
نَبَـذْتُ إليـهِ حُـزَّةً مـن شِـوائِنا ∴ حَياءً ومَا فُحْشِي عَلى مَـنْ أُجـالِسُ
فَتآضَ بهـا جَـذْلانَ يَـنْفُضُ رَأْسَـهُ ∴ كما آبَ بالنَّهْبِ الكَمِيُّ المُحـالِسُ[1]

وكذلك نجد الفرزدق يكرم الذئب ويطعمه، ويشركه معه في زاده، فيقولك:

وَأَطلَسَ عَسّالٍ وَمـا كـانَ صـاحِباً ∴ دَعَـوتُ بِنـاري موهِنـاً فَأَتـاني
فَلَمّـا دَنـا قُلـتُ اِدنُ دونَـكَ إِنَّنـي ∴ وَإِيّـاكَ فـي زادي لَمُشـتَرِكانِ

([1]) ديوان المرقشيين (المرقش الأكبر، والمرقش الأصغر) صـ٥٧، ٥٨، تحقيق: كارين صادر، ط: دار صادر، بيروت، ط: الأولى ١٩٩٨م .

فَبِتُّ أُسَوّي الزادَ بَيني وَبَينَهُ ∴ عَلى ضَوءِ نارٍ مَرَّةً وَدُخانِ
فَقُلتُ لَهُ لَمّا تَكَشَّرَ ضاحِكاً ∴ وَقائِمُ سَيفي مِن يَدي بِمَكانِ
تَعَشَّ فَإِن واثَقتَني لا تَخونَني ∴ نَكُن مِثلَ مَن يا ذِئبُ يَصطَحِبانِ[١]

ثانياً: من عاداتهم أيضاً أنهم يقيمون صداقة مع الذئب، بل أحياناً يجعلونه من الأهل، ويقدمونه عليهم، كما فعل الشنفري في لاميته، إذ يقول:

وَلي دونَكُم أَهلَونَ سيدٌ عَمَلَّسٌ ∴ وَأَرقَطُ زُهلولٌ وَعَرفاءُ جَيأَلُ
هُمُ الأَهلُ لا مُستَودَعُ السِرِّ ذائِعٌ ∴ لَدَيهِم وَلا الجاني بِما جَرَّ يُخذَلُ[٢]

فقد قدّم الشنفري الذئب(السيد) على النمر والضبع، فهم أهله المقربون.

ثالثاً: ومن عاداتهم – أيضاً – أن الطير تتبعهم في رحلاتهم وغزواتهم؛ لتعودها منهم الكرم، ومن ذلك قول النابغة في مديحه لعمر ابن الحارث الأكبر بن أبي شمر:

إِذا ما غَزوا بِالجَيشِ حَلَّقَ فَوقَهُم ∴ عَصائِبُ طَيرٍ تَهتَدي بِعَصائِبِ [٣]

وذلك لأن الطير يعرف أنه سيطعم اللحم من الأعداء .

وهذا المعنى أخذه كثير من الشعراء، ومن ذلك قول ابي نواس من قصيدة يمدح بها العباس بن عبيد الله بن جعفر المنصور:

تَتَأَيّا الطَيرُ غُدوَتَهُ ∴ ثِقَةً بِالشَبعِ مِن جَزَرِه [٤]

---

(١) شرح ديوان الفرزدق: ٢ / ٥٩٠، ضبط معانيه وشروحه وأكملها: إيليا الحاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، ط: الأولى ١٩٨٣م .

(٢) ديوان الشنفري صـ٥٩ جمعه وحققه وشرحه: د/ إميل بديع يعقوب، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الثانية ١٤١٧هـ ١٩٩٦م .

(٣) ديوان النابغة الذبياني صـ١٤، اعتنى به: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط: الثانية ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

(٤) ديوان أبي نواس صـ٣١١، ط: دار صادر، بيروت، من دون تاريخ .

ومن ذلك قول أبي تمام:

وَقَد ظُلِّلَت عِقبانُ أَعلامِهِ ضُحىً ∴ بِعِقبانِ طَيرٍ في الدِماءِ نَواهِلِ [١]

ومن ذلك قول مسلم بن الوليد يمدح يزيد بن مزيد الشيباني:

قَد عَوَّدَ الطَيرَ عاداتٍ وَثِقنَ بِها ∴ فَهُنَّ يَتبَعنَهُ في كُلِّ مُرتَحَلِ [٢]

ومن ذلك قول المتنبي:

سَحابٌ مِنَ العِقبانِ يَزحَفُ تَحتَها ∴ سَحابٌ إِذا اِستَسقَت سَقَتها صَوارِمُه [٣]

وهذا ما ذكره الحطيئة حينما تحدث عن كرمه ووفائــه لغــراب وذئــب، وكلاهما لا يستحق الوفاء فيقول [٤]:

وَيُمسي الغُرابُ الأَعوَرُ العَينِ واقِعاً ∴ مَعَ الذِئبِ يَعتَسّانِ ناري وَمِفأَدي [٥]

رابعاً: كما أن من عاداتهم أيضاً ذكر المخاطر، وركوب الخطر دون خوف أو وجل، ومن المخاطر، طمع الذئب فيهم لكثرة إعيائهم، فيتوقع الــذئب ســقوطهم وهلاكهم، ومن ذلك قول حميد بن ثور الهلالي، في قصيدة كاملة يصور فيها ذئبــاً جائعاً يتربص بقطيع من الضأن والمعز، طمعاً في الحصــول علــى واحــد مــن صغارها، لكن ربّة القطيع تقف له بالمرصاد:

---

(١) شرح ديوان أبي تمام للخطيب التبريزي: ٢ / ٤٠، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه: راجــي الأسمر، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الثانية ١٤١٤هـ ١٩٩٤م .

(٢) شرح ديوان صريع الغواني (مسلم بن الوليد): ٢ / ١٢، عني بتحقيقه والتعليــق عليــه: د/ سامي الدهان (عضو المجمع العلمي العربي بدمشق) دار المعارف، ط: الثالثة ١٩٨٥م .

(٣) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي لأبي العلاء المعري (معجز أحمد): ٣ / ٢٥، تحقيق: د/ عبد المجيد دياب، دار المعرفة، القاهرة، ط: الثانية ١٤١٣هـ ١٩٩٢م .

(٤) ديوان الحطيئة، حمدو طماس صـ٥٣ .

(٥) معاني الكلمات: يعسان: يطلبان . المفأد: الموضع الذي يختبز فيه ويشوى .

تَرى رَبَّــهُ الــبَهم الفِــرارَ عَشِــيّةً ∴ إِذا ما عدا في بَهمِها وَهــوَ ضــائِعُ
فَقامَت تَعُــسُّ ســاعةً مــا تُطيقُهــا ∴ مِنَ الدَّهرِ نامَتها الكِلابُ الظَّوالِــعُ
رأَتهُ فَشَــكَّت وَهــوَ أَطحَــلُ مائِــلٌ ∴ إِلى الأَرضِ مَتنيٌّ إِلَيهِ الأَكــارِعُ (١)

ولما فشل في قنص أحد صغارها، رأي جيشاً فتبعه عله يظفر بواحد منهم ينفرد أو يسقط هالكاً، فيقول:

يَنــامُ بِإِحــدى مُقلَتيــهِ وَيتّقــي ∴ بِأُخرى الأَعادي فَهوَ يَقظانُ هــاجِعُ
فَظلّ يُراعي الجَيشَ حَتّــى تَغَيَّبــت ∴ خُباشٌ وَحالَت دونَهُنَّ الأَجــارِعُ (٢)

وهذا ما ذكره الحطيئة، فهو يركب المخاطر – كما بينت – حيث يجــوب الصحراء منفرداً (وبلدة حيبتها وحدي بيعملة) ثم يجتمع عليه الخطر والموت مــن كل جانب، ثم يظهر في الصورة الذئب الذي يطرقه ليلا، ويتبعه كظله بغية الــزاد، أو هلاكه هو فيظفر ببغيته، فعادات الشعراء كلها التي ذكرتها عند الحطيئة، وهــذا يدل على تساميه ووفائه مع الذئب الذي لا يستحق.

وكأني بالحطيئة يسقط – أيضاً – فيجعل الذئب معادلاً للزبرقان، وهو قــد قابل غدره بالوفاء، كما فعل في الصورة السابقة حينما قابل غدر الصاحبة بالوفــاء وفي جعل الحطيئة الذئب معادلاً للزبرقان فيه تقليل لشان الزبرقان وتصــغير لــه، فهو يجعله كأنه يتربص بالحطيئة وينتظر منه الهلاك حتى يظفر به ، وكأن هذا فيه مبرر لأن يتركه ويبتعد عنه كما يترك الذئب ويبتعد عنه.

ونلاحظ هنا – أيضاً – أنه ختم تلك الصورة بظهور أمامة متحدثة ناصحة ومواسية، وإذا كانت أُمامة في الصورة الأولى لم يكن لها ظهور حقيقــي، وإنمــا ظهرت عن طريق الخيال (طافت أمامة) فهي هنا أمامه قائلــة لــه: (لا تجــزع)،

---

(١) ديوان حميد بن ثور صـــ١٠٣، تحقيق: عبد العزيز الميمني، نسخة مصورة عن طبعــة دار الكتاب ١٣٧١هـــ ١٩٥١م، الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٤هـــ ١٩٦٥م .
(٢) السابق: صـــ١٠٥ .

والجزع لا يكون إلا من المصائب العظيمة، والنوازل الفظيعة، ثم يحاورها قــائلاً: إن العزاء وإن الصبر قد غلبا.

وكأنه يريد أن يقول – مبرراً تحوله عــن الزبرقــان – مكثــت طــويلاً، وانتظرت كثيراً، حتى قاربت على الهلاك، ولم أتحول إلا بعد أن فرغ مني الصبر، ويئست من المواساة، وكأنه يمهد بذلك للصورة الثالثة من وفائه، وهي:

الصورة الثالثة: الوفاء للممدوح في مقابلة إكرامه :

من تسامي الحطيئة أنه وفى لمن أكرمه، وهو بغيض وقومه؛ ولذلك حرص على أن ينفي عنه الغدر والخيانة لابن عمه الزبرقان، وقد ساق الحجج والبــراهين التي دلل بها على صدق ما يقول، وعلى وفائه ووفاء صاحبه، فهو غريب بعيد عن الأهل والديار:

إنَّ اِمرأً رَهطُهُ بِالشامِ مَنزِلُهُ ∴ بِرَملِ يَبرينَ جاراً شَدَّ ما اِغتَرَبا [١]

ثم هو معدم، لا يوجد عنده مال يغنيه وأهله، ويجعله يستقر في بلده:

هَلّا اِلتَمَستِ لَنا إِن كُنتِ صادِقَةً ∴ مالاً فَيُسكِنُنا بِالخُرجِ أَو نَشَبا [٢]

ثم ينافح عن بغيض وفعله الحسن الجميل معه فيقول [٣]:

رَدّوا عَلــى جــارِ مَــولاهُم بِمَهلِكَــةٍ ∴ لَولا الإِلَهُ وَلَــولا عَطفُهُــم عَطَبــا
فَــوَفَّروا مالَــهُ مِــن فَضــلِ مــالِهِمُ ∴ لَولا الإِلَــهُ وَلَــولا سَــعيُهُم ذَهَبــا
لَن يَترُكــوا جــارَ مَــولاهُم بِمَتلَفَــةٍ ∴ غَبراءَ ثُمَّتَ يَطــوُوا دونَــهُ السَــبَبا
ما كانَ ذَنــبُ بَغــيضٍ لا أَبــا لَكُــمُ ∴ في بائِسٍ جاءَ يَحــدو أَينُقــاً شُسُــبا

---

(١) ديوان الحطيئة – حمدو طماس صـــ١٩ .
(٢) السابق: صـــ١٩ .
(٣) السابق: صـــ٢٠، ٢٢ .

حَطَّت بِهِ مِن بِــلادِ الطــورِ عادِيَــةٌ ∴ حَصّاءُ لَم تَتَّرِك دونَ العَصا شَــذَبا
ما كانَ ذَنبِيَ في جــارٍ جَعَلــتُ لَــهُ ∴ عَيشاً وَقَد كانَ ذاقَ المَوتَ أَو كَرَبــا
جارٍ أَنِفــتُ لِعَــوفٍ أَن تُسَــبَّ بِــهِ ∴ أَلقاهُ قَــومٌ دُنــاةٌ ضَــيَّعوا الحَسَــبا
أَخرَجتَ جارَهُمُ مِــن قَعــرِ مُظلِمَــةٍ ∴ لَو لَم تُغِثهُ ثَوى في قَعرِها حِقَبــا[1]

يتحدث الحطيئة عن نفسه بأنه كان بمهلكة، وبمتلفة غبراء، وهذا كناية عن سوء حالته حينما كان مجاوراً للزبرقان، وكأن المهلكة المتلفة الغبراء، هــي التــي صورها في الصورة السابقة حينما قال: وبلدة جبتها وحدي بيعملة.

وهذا يؤكد أنه عني بالصاحبة الغادرة، وبالذئب الغادر الزبرقان، ثم ينــافح عن نفسه بأنه غريب، لا يوجد لديه مال، واقع في ضيق وكرب، كأنه واقع في قعر بئر عميقة مظلمة، وقد شارف على الهلاك، ثم من خلال هذه المهلكــة مــدت لــه الحياة يدها عن طريق بغيض، فتعلق بها، فلا ملامة عليه ولا حرج .

ثم يتحدث عن كرم بغيض وقومه وشجاعتهم، وضمانهم ماله وحياته، ولــذلك فهو ينفي عن بغيض الذنب فيما فعل (ما كان ذنب بغيض – ما كان ذنبي في جار) .

ونلاحظ أنه اختار الذنب وكرره، وقد نفاه عن صاحبه في كل مرة ذكــره، وكأنه أراد أن ينفي عنه استحقاق العقاب والذم، لأن الذنب " ينبئ عــن اســتحقاق العقاب، وإنما يسمى الذنب ذنباً لما يتبعه من الذم، لأنه أرذل ما في صاحبه " [2] .

---

(1) معاني الكلمات: الخرج: هي أسفل الصحان، وهي لبني كعب. النشب: المال القليــل. ردوا: يعني بني لأي. الجار: الحطيئة. مولاهم: أراد به الزبرقان. عطَب: هلك وفني. المتلفة: المهلكة. السبب: الوسيلة. البائس: الحطيئة. يحدون: يسوق. أينقا شسبا: جائعة وهزيلــة ومتعبــة. بــلاد الطور: بلاد الشام. عادية: سنة باردة وشديدة. حصّاء: لا نبت فيها، شذب العصاء: قشرها. دناة: جمع مفرده دنيّ: وهو الساقط الضعيف .

(2) الفروق اللغوية لأبي الهلال العسكري صــ٢٢٩، حققه وعلّق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، من دون تاريخ .

ولذلك قابل هو هذا الكرم بالوفاء، وهذا يدل على تساميه فيقول:

حَتّى يُجازِيَ أَقواماً بِسَعيهِمِ ∴ مِن آلِ لَأيٍ وَكانوا سادَةً نُجُبا [١]

وهو حريص على الوفـاء لمن أكرمـه، ولذلك يطـلب مـن المـولى – سبحانه – مجازاة بغيض في قصيدة أخرى فيقول:

فَجَزى الإِلَهُ أَخي بَغيـ ∴ ضاً خَيرَ ما يُجزى المُعاشِر [٢]

وهو حينما يدافع عن بغيض ويذب عنه بل ويمدحه ويعلي شأنه هو بذلك يذكر الدليل العملي على وفائه وأنه لا ينسى من يحسن إليه، وهو في هذا أيضاً يومئ إلى أن الزبرقان يستحق الذم والهجاء، لأن من شأن الحطيئة الوفاء لمن أحسن إليه .. وهـذا طبعاً مخالف لطبيعته وجبلته وما عرف عنه وشهر به ...

الصورة الرابعة: صدق المحبة:

الذائع والمشهور عن الحطيئة أنه لم يحمل حبّاً صادقاً لأحد، وإنما كانت تدفعه وتسيره وتوجه حديثه وشعره، الرغبة والرهبة، فهو لم يكن حبًّا لأمه وأبيه، ولا لعمه وخاله، وإخوته، بل هجا الجميع كما رأينا، ولكنه مع ذلك كان يتسامى أحياناً، فيظهر في شعره صدق المحبة، ومحافظته على الود والهوى، وحفظ المحبوبة، وإخفاء هـذا الحب ومداراته، حتى لا يفتضح أمرها بين الأهل والعشيرة، فيلحقها ضـرر أو أذى، وقد ظهر هذا واضحاً وجلياً مع محبوبته هند .

فالعجيب أنه في كل القصائد التي ورد فيها اسم هند، والحديث عنها، يبـدي معها صدق المحبة، وتمسـكه بالعهد والمحافظة على الود، ومن ذلك قوله [٣]:

أَلا طَرَقَـت هِنـدُ الهُنـودِ وَصُـحبَتي ∴ بِحَـورانَ حَـورانِ الجُنـودِ هُجـودُ

---

(١) ديوان الحطيئة – حمدو طماس صـ٢٠ .

(٢) السابق: صـ٧٩ .

(٣) ديوان الحطيئة – حمدو طماس صـ٤٥، ٤٦ .

وَكَم دونَ لَيلى[١] مِن عَدُوٍّ وَبَلدَةٍ ∴ بِها لِلعِتاقِ الناجِياتِ بَريدُ
وَخَرقٍ يُجِرُّ القَومَ أَن يَنطِقوا بِهِ ∴ وَتَمشي بِهِ الوَجناءُ وَهِيَ لَهيدُ
كَأَن لَم تُقِم أَظعانُ هِندٍ بِمُلتَقىً ∴ وَلَم تَرعَ في الحَيِّ الحِلالِ تَرودُ
إِذا حُدِّثَت أَنَّ الَّذي بِيَ قاتِلي ∴ مِنَ الحُبِّ قالَت ثابِتٌ وَيَزيدُ
إِذا ما نَأَت كانَت لِقَلبِي عَلاقَةٌ ∴ وَفي الحَيِّ عَنها هِجرَةٌ وَصُدودُ
سَخونُ الشِتاءِ يُدفِئُ القُرَّ مَسُّها ∴ وَفي الصَيفِ جَمّاءُ العِظامِ بَرودُ
عَبيرٌ وَمِسكٌ آخِرَ اللَيلِ نَشرُها ∴ بِهِ بَعدَ عَلّاتِ البَخيلِ تَجودُ
تَذَكَّرتُ هِنداً فَالفُؤادُ عَميدُ ∴ وَشَطَّت نَواها فَالمَزارُ بَعيدُ
تَذَكَّرتُها فَارفَضَّ دَمعي كَأَنَّهُ ∴ نَثيرُ جُمانٍ بَينَهُنَّ فَريدُ[٢]

هند في هذه القصيدة تملك عليه قلبه وعقله، ولذلك تأتيه في نومه (ألا طرقت هند) فتكون قريبة منه، ولكن في اليقظة دونها أعداء وبلاد وجبال ... إلخ ولكن مع النأي والبعد هو صادق في محبتها، لم يغيره بعدها وصدها .

ونلاحظ هنا أنه ترقى في البعد والفراق، فذكر النأي أولاً، ثم ثنى بالبعد، والنأي يكون أول البعد، والبعد يكاد يبلغ الغاية [٣] .

ومن مظاهر صدق المحبة:

(١) الثبات على الحب مع بلوغه غاية الضرر:

أن الذي بي قاتلي ∴ من الحب قالت ثابت ويزيد

فهو قد شارف على الموت والهلاك، وهي لم ترق لحاله، وإنما وعدته بما

---

(١) في ديوان الحطيئة بشرح ابن السكيت صـ٢٨٥، أما ديوان الحطيئة تحقيق حمدو طماس: وكَمن دون ليلى، وأظنه خطأ من الناسخ، لأن الحديث كله عن هند فقط .

(٢) معاني الكلمات: الناجيات: المسرعات. الخرق: الأرض البعيدة. الوجناء: الناقة الغليظة. الحلال: الكثير. جمّاء: ليس لعظمها حجم. العميد: من أوجعه الحب، فهو معمود. ارفض: انتشر وتفرق. الجمان: حبات من الفضة على شكل لؤلؤ. فريد: در.

(٣) ينظر: الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري صـ٢٣ .

هو أكثر من ذلك (ثابت ويزيد) .

وقد أخذ هذا البيت راويته جميل فقال مخاطباً بثينة:

إذا قُلتُ ما بي يا بُثَينَةُ قاتِلي ∴ مِنَ الحُبِّ قالَت ثابِتٌ وَيَزيدُ [١]

ولأن جميل راوية للحطيئة، فهو يحفظ شعره، ولذلك أخذ البيت بلفظه ومعناه، ولكن جميل هو المتحدث مباشرة مع بثينة: " إذا قلت ما بي يا بثينة " ولكن الحطيئة نأت عنه هند، وشطت بها البلاد والصحاري، ولكنه لشدة حبه لها، وتمكن هذا الحب من قلبه، علم به الركبان والظاعنون، فحملوه إليها " إذا حُدّثت " .

(٢) تضاد الحالة بينه وبينها، هو ثابت على حبه، باق على وفائه لا يتحــول، ولا تبدله السنون، وهي نأت عنه وابتعدت " إذا ما نأت كانت لقلبي علاقة " .

(٣) شدة الخوف والحرص عليها، ولذلك نراه يظهر أمام الناس هجره لها، وصدّه عنها، حتى لا يفتضح أمرها في الحيّ، فيلحقها الضرر وفي حقيقة الأمر، في القلب منها تعلق وشغف " كانت لقلبي علاقة " .

وهذا الحرص عليها والخوف، يكررهما في قصيدة أخرى فيقول:

عَرَفــتُ مَنــازِلاً مِــن آلِ هِنــدٍ ∴ عَفَــت بَــينَ المُؤَبَّــلِ وَالشَــوِيِّ

تَقــادَمَ عَهــدُها وَجَــرى عَلَيهــا ∴ سَــفِيٌّ لِلرِيــاحِ عَلــى سَــفِيِّ

تَراهــا بَعــدَ دَعــسِ الحَــيِّ فيهــا ∴ كَحاشِــيَةِ الــرِداءِ الحِميَــرِيِّ

أَكُــلُّ النــاسِ تَكــتُمُ حُــبَّ هِنــدٍ ∴ وَما تُخفــي بِــذَلِكَ مِــن خَفِــيِّ[٢]

فرغم مرور الزمن، وتقادم العهد إلا أنه باق على حبه ووفائه، صادق فــي محبته، ثم هو يكتم حبها على كل الناس حتى لا يصيبها أذى، أو يلحقها ضرر .

(٤) كما أن من صدق المحبة أيضاً، دوام التذكر لها: (تذكرت هندا، تــذكرتها ..)

---

(١) ديون جميل بثينة صـــ٣٨ – دار صادر – بيروت – من دون تاريخ .

(٢) ديوان الحطيئة – حمدو طماس صـــ١٥٤ .

معاني الكلمات: عفت: درست واندثرت. المؤبل: هي الإبل الكثيرة. السفي: كل ما سفته الــريح من تراب. الدعس: كثرة الوطء .

ثم يبين أثر التذكر، وهو وجع القلب، وانهمار الدمع: فالفؤاد عميد، فارفض دمعي وهذا يدل على أن الحب باق في قلبه، وأثره قوي .

(٥) كما أنه مما يدل على صدق المحبة، دوران اسمها وتكراره في القصيدة كلها، ومما لا شك فيه أن من يحب شخصاً يحلو له ترديد اسمه وتكراره، كما في الأبيات السابقة: ألا طرقت هند الهنود وصحبتي ... [١] .

ومن ذلك قوله أيضاً:

أَلا طَرَقَتنا بَعدَما هَجَدوا هِندُ ∴ وَقَد سِرنَ خَمساً وَاِتلَأَبَّ بِنا نَجدُ
أَلا حَبَّذا هِندٌ وَأَرضٌ بِها هِندُ ∴ وَهِندٌ أَتى مِن دونِها النَأيُ وَالبُعدُ
وَهِندٌ أَتى مِن دونِها ذو غَوارِبٍ ∴ يُقَمَّصُ بِالبوصِيِّ مُعرَورِفٌ وَردُ[٢]

فتلاحظ هنا أنه كرر اسمها خمس مرات في ثلاثة أبيات، وهذا يدل على شدة حبه وتلذذه بذكر اسمها .

ومن ذلك قوله أيضاً:

أَرَسمَ دِيارٍ مِن هُنَيدَةَ تَعرِفُ ∴ بِأَسقُفَ مِن عِرفانِها العينُ تَذرِفُ
سَقى دارَ حِندٍ مُسبِلُ الوَدقِ مَرُّهُ ∴ رُكامٌ سَرى مِن آخِرِ اللَيلِ مُردِفُ
فَلا هِندَ إِلّا أَن تَذَكَّرَ ما خَلا ∴ تَقادُمَ عَهدٍ وَالتَذَكُّرُ يَشعَفُ
تَذَكَّرتُ هِنداً مِن وَراءِ تِهامَةٍ ∴ وَوادي القُرى بَيني وَبَينَكَ مُنصِفُ
وَقَد عَلِمَت هِندٌ عَلى النَأيِ أَنَّني ∴ إِذا عَدِموا يُسراً لِنِعمَ المُكَلَّفُ[٣]

---

(١) ديوان الحطيئة، حمدو طماس صـ٤٥، ٤٦ .

(٢) السابق: صـ٣٩، ٤٠ .

معاني الكلمات: الاتلئباب: الانطلاق والتتابع والسرعة . نجد: ما ارتفع من الأرض . أتى من دونها: أي حال دونها . ذو غوارب: هو البحر، وغواربه: أعالي موجه . يقمص: يضطرب . البوصي: ضرب من السفن . معروف: مرتفع الأمواج . ورد: كدر أحمر .

(٣) ديوان الحطيئة / حمدو طماس صـ٩٦، ٩٧ .

معاني الكلمات: أسقف: اسم لمكان . مردف: أي كان رديفاً له . يشعف: أي يذهب بالقلب .

فهنا يصغر اسمها تودداً وتحبباً " هنيدة " ثم يدعو لها بالســقيا، ويكــرر اسمها ويذكره، وأنه باق على حبه ووفائه وصدقه في محبتها .

وهذا من تساميه، ومخالفته لما هو شائع ومشهور عنه من عدم إخــلاص وغدر وخيانة .

الصورة الخامسة: غيرته على نسائه وبناته وأهله:

شاع واشتهر عن الحطيئة فساده، وفساد أخلاقه " بيد أنه أثر عنه كثير من الصفات الحميدة والخصال المجيدة، منها غيرته على بناته وتجنيبهم سماع الغنــاء من الشباب " [١] .

وهذا يدل على شدة الغيرة على بناته وخوفه عليهم، كما ذكر عنه " أنه كان برًّا بأسرته عطوفاً عليها، وقد ورد في الأذكار من أخباره أن الحطيئة أراد ســفراً فأتته امرأته، وقد قُدّمت راحلته ليركب فقالت:

اذكر تحننا إليك وشوقنا ∴ واذكر بناتك إنهن صغار

فحركت قلبه وأذكت شعوره، فقال: حطوا، لا رحلت أبداً " [٢]

وهذا يدل على عطفه، وحنوه على أهله وتساميه، فقد تخلى عن طلب المال وتسامى على رغباته من أجل امرأته وبناته .

ومن تساميه – أيضاً – غيرته على نساء قومه ودفاعه عنهم، ومــن ذلــك قوله في قصيدة يهجو بها بجاد بن مالك بن غالب بن قُطَيْعة (من عبس وهم رهطه) ويتحدث فيها عن دفاعه عن بني عمه، وعن نسائهم:

وَكُنّــا إِذا دارَت عَلَــيكُم عَظيمَــةٌ ∴ نَهَضنا فَلَم يَنهَض ضِعافٌ وَلا ضُجُر

وَنَحنُ إِذا ما الخَيــلُ جــاءَت كَأَنَّهــا ∴ جَرادٌ زَفَت أَعجازَهُ الــريحُ مُنتَشِــر

---

(١) ديوان الحطيئة، حمدو طماس صـــ٦، وينظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة: ٣٢٦/١، ٣٢٧.

(٢) ديوان الحطيئة / حمدو طماس صـــ٦، ٧ .

إذا الخَفِراتُ البيضُ أَبــدَت خِــدامَها ∴ وَقامَت فَزالَت عَن مَعاقِــدِها الأُزُر
نُحامي وَراءَ السَبيِ مِنكُم كَما حَمَــت ∴ أُسودٌ ضَوارٍ حَولَ أَشــبالِها هُصُــر
عَلى كُلِّ مَحبــوكِ المَراكِــلِ ســابِحٍ ∴ إِذا أُشرِعَت لِلمَوتِ خَطِّيَــةٌ سُــمُر
أَرى قَومَنــــا لا يَغفِــــرونَ ذُنوبَنــــا ∴ وَنَحنُ إِذا مــا أَذنَبــوا لَهُــمُ غُفُــر
وَنَحــــنُ إِذا جَبَّبــــتُمُ عَــــن نِســــائِكُم ∴ كَما جَبَّبَت مِن عِندِ أَولادِها الحُمُــر
عَطَفنا العِتاقَ الجُردَ خَلــفَ نِســائِكُم ∴ هِيَ الخَيلُ مَسقاها زُبالَــةُ أَو يُسُــر
يَجُلــــنَ بِفِتيــــانِ الــــوَغى بِــــأَكُفِّهِم ∴ رُدَينِيَّــــةٌ سُــــمرٌ أَسِــــنَّتُها حُمــــرُ[1]

يصور لنا الحطيئة أن بني عمه حينما يتعرضون لغارة شعواء، تتحرك فيها جياد العدو بالفرسان كالجراد المنتشر لكثرتها وخفتها، في هذا الوقــت العصــيب ننهض للدفاع عنهم فهو من قوم متمرسين بالحرب، غير ضعاف ولا متضــجرين، فندافع عن الحرائر الحييات اللاتي أفزعتهم الحرب فشمرن عن سيقانهن هرباً مــن الأسر والسبي، عندئذ ندافع عنهم كالأسود التي تحمي أشبالها بخيولهــا المدربــة، ورماحنا المشرّعة، وسيوفنا المرهفة، لا تغير الحرب من هيئاتنــا؛ ولــذلك يــذكر بياض وجوههم، وهذا دلالة على الشجاعة المتناهية، والتمــرس التــام بــالحرب والشدائد وإذا جبنتم وتخاذلتم، وتركتم النساء والعرض، تداركنا النساء بخيولنا التي تعرفونها، وتعرفون مواطن سقياها .

وهكذا نرى الحطيئة يجلجل بالشجاعة والبسالة، والغيــرة علــى النســاء والأهل، وكأنه يتقمص شخصية عنترة العبسي، حامي العشيرة والأهل بالمنصل .

---

(١) السابق: صـــ٨١، ٨٣ .

معاني المفردات: زفته: استخفته وطردته وحملته. أعجازه: أواخره. منتشر: متفرق. الخفــرات: الجواري الحييات. الخدام: الخلاخيل، وهي جمع مفرده خِدمة. المحبوك: شــديد الفتــل، يعنــي الفرس. الخطية: الرماح المنسوبة إلى الخط بالقرب من البحرين. المراكل: موضع عقبي الفارس من جنب الفرس. مطاعين: يطعنون بالرماح. زبالة ويسر: موضعان بالبادية .

وهذا يتنافى عما اشتهر به من دناءة وخسة وصغار وهوان، ولكنه يتسامى هنا عن هذه الأمور، فنرى شخصية حرّة أبية، تأبى العار، وتدافع عن النساء بكـــل ما أوتيت من قوة .

(٢)صور التعزز

السمت السائد عند الحطيئة، والمشهور عنه، تدني النفس وتذللها، سواء في سؤاله كل طبقات الناس من الملوك إلى السوقة، فلم يترك أحداً إلا وسأله، أو من الإلحاح في السؤال دونما خجل أو خزي، فكان لا يتحول عن مجير إلا عندما يجد مجيراً آخر، أو من سؤاله الشيء القليل، والرضى بالغث الهين .

ولكننا أحياناً نجده يبدي تساميه وترفعه، وتعززه عن الغير، ويأتي التعزز عند الحطيئة في ثلاث صور:-

الصورة الأولى: التولي خشية الهوان .

الصورة الثانية: قطع الطمع من الغير .

الصورة الثالثة: الرضا بالجوع والتعزز في البعد، عن الشبع والهوان في القرب

الصورة الأولى: التولي خشية الهوان :

ويتجلى هذا المظهر واضحاً جلياً في قوله من قصيدة يمدح بها بغيضاً، ويهجو الزبرقان، فيقول:

فَلَمّا خَشيتُ الهونَ وَالعيرُ مُمسِكٌ ∴ عَلى رَغمِهِ ما أَثبَتَ الحَبلَ حافِرُه

وَلَّيتُ لا آسى عَلى نائِلِ اِمرِئٍ ∴ طَوى كَشحَهُ عَنّي وَقَلَّت أَواصِرُه

وَكُنتُ كَذاتِ البَعلِ ذارَت بِأَنفِها ∴ فَمِن ذاكَ تَبغي غَيرَهُ أَو تُهاجِرُه[1]

ونلاحظ أن الحطيئة بنى كلامه في تعززه على الترقي، فبدأ بالخوف من وقوع المذلة والخزي، ثم انتقل من الفعل (الخشية) إلى ردّ الفعل السريع، وهو التولي والإعراض، وهذا التولي عن امتناع وتعزز (لا آسى) أي أحزن.

---

(١) ديوان الحطيئة، حمدو طمّاس صـ٥٨ .

معاني الكلمات: العير: الحمار، ويضرب به المثل في المذلة. لا آسى: لا أحزن. نائل امرئ: عطاؤه، وأراد به الزبرقان. طوى كشحه: تركني. أواصره: أرحامه وعواطفه. ذات البعل: امرأة لها زوج. ذارت بأنفها: أي لم تشم ولدها وكرهته وروى البيت: كذات البو.

ونلاحظ أن الحطيئة قال: " خشيت " ولم يقل – مثلاً –: " خفت "، وهذا يدل على الدقة من الخطيئة في توظيف الكلمات المعبّرة عن حاله توظيفاً جيداً، فالخشية " خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، وحقيقتها طمأنينة في القلب تبعث على التوقيّ، أما الخوف فهو توقع مكروه أو فوت محبوب، وهو ظن لا يقين معه، وضده الأمن .. وتفترق الخشية عن الخوف بأنها تكون عن يقين صادق بعظمة من نخشاه، أما الخوف فيجوز أن يحدث عن تسلط بالقهر والإرهاب والخشية خلاصة الإيمان والعلم، ولا تكون إلا لمؤمن مصدّق، لأنها يقين راسخ، لذا غلبت على الخوف الذي يكون من العبد تجاه خالقه [١] قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء } [٢] .

ثم نرى الحطيئة قد علّق التولي على الخشية، وليس على وقوع المذلة والمهانة؛ لأن الذل والهوان لا يرضاهما إلا البليد، دنئ النفس مهين، وهذا من طبع الحمار، وهذا مما يعُاف ويكره في النفس، والعرب ترفض ذلك وتأباه، ومنه قول المتلمس الضبعي:

ولَن يُقيمَ عَلى خَسفٍ يُسامُ بِهِ ∴ إلاّ الأَذَلاّنِ عَيرُ الأَهلِ وَالوَتِدُ [٣]

فهو قد تولى في وقت الضيق والشدة، وفي توليه هذا ينسجم ظاهره مع باطنه ويتوافق في التعزز، يدلل على هذا قوله: (وليت لا آسى)، لأن التولي، وهو الإعراض، ظاهر حاله، وقد يُظن أنه يأسف على إعراضه، ويندم لأنه فاته مال أو

---

(١) دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني صـ٢٠٥، أطروحة تقدم بها: محمد ياس خضر الدورى إلى مجلس كلية التربية (ابن رشد) في جامعة بغداد، وهي جزء من متطلبات درجة دكتوراه: فلسفة في اللغة العربية، لغة إشراف أد/ خليل بنيان الحسون ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

(٢) سورة: فاطر، آية [٢٨] .

(٣) ديوان شعر المتلمس الضبعي صـ٢٠٨، رواية الأثرم، وأبي عبيدة عن الأصمعي، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، جامعة الدول العربية، معهد المخطوطات العربية ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م .

غيره، وهذا منقص للتعزز، ويدل على فساد النفس وخبثها، فأراد أن يبين خـلاف ذلك فقال: لا آسى، فينفي عن نفسه الحزن والأسى وهذه أمـور باطنـة داخليـة وخافية، وهذا يدلل على توافق الظاهر مع الباطن، ويدل على أن توليه عن عـزة نفس، وإباء للضيم، وأنه لا يرضى بالمال والنوال في مقابلة المذلة والهوان، وكأن لسان حاله يقول:

أَصونُ عِرضـي بِمـالي لا أُدَنِّسُـهُ ∴ لا بارَكَ اللَهُ بَعدَ العِـرضِ بِالمـالِ
أَحتـالُ لِلمـالِ إِن أَودى فَأَجمَعُـهُ ∴ وَلَستُ لِلعِرضِ إِن أَودى بِمُحتـالِ[1]

وفي قوله: نائل امرئ طوى كشحه عنيّ وقلت أواصره

يبدو لنا أمران:

الأول: صورة الآخر، وفيها نرى أنه أنصفه، مع أن طبع الحطيئة بخـلاف ذلك، فقد أثبت له نوالاً (نائل) فأثبت له أصل الكرم، وهو العطاء، ووصـفه بمـا يقتضي المروءة (امرئ) وبذلك يكون قد أنصف الزبرقـان، فأثبـت لـه العطـاء والمروءة، رغم خلافه معه، وهذا من تسامي النفس وعظمتها .

الأمر الثاني: أنه أثبت لنفسه التعفف، فقد تولى بمجرد ظهور الكراهية، ولم يصبر حتى يقع به مكروه أو يصيبه أذى .

كما يلاحظ أنه أبقى على الصلة بالزبرقان، ولذلك جاء بالبيت التالي:

وكنت كذات البعل ذرات بأنفها .. إلخ .

وفي رواية: كذات البو [2] .

وهي الأوفق عندي؛ لأن صورة المرأة ذات الزوج، الكارهة لـه وتنظـر لغيره وتتركه، وتبغي غيره، أظنها صورة مستهجنة، لا تليق بالعربية الحرة، وإنما نقبل هذا من الناقة التي يؤخذ ولدها، ثم يصنع لها بوّاً مكانه، وهي صورة بصرية

---

(1) ديوان حسان بن ثابت صـ١٩٢، شرحه وكتب هوامشه وقدم له: عبدأ . مهنّـا، دار الكتـب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الثانية ١٤١٤هـ ١٩٩٤م .

(2) ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت صـ٢٦ .

مستوحاة من البيئة، أتى بها الحطيئة ليبين لنا أنه رغم انبتات الصلة بينه وبين الزبرقان إلا أنه باق على العلاقة، لم يبخل عنه أو يتركه، ولم يخنه ويغدر به، رغم المعاناة والضيق وشدة الحاجة، ولذلك تأتي الأبيات بعد ذلك تؤصل هذا المعنى وتقويه، فيسوق الحجج والأدلة التي تنفي عنه وعن ممدوحه بغيض الخيانة والغدر، فيقول:

قَرَوا جارَكَ العَيمانَ لَمّا تَرَكتَهُ ∴ وَقَلَّصَ عَن بَردِ الشَرابِ مَشافِرُه
سَناماً وَمَحضاً أَنبَتا اللَحمَ فَاِكتَسَت ∴ عِظامُ اِمرِئٍ ما كانَ يَشبَعُ طائِرُه
هُمُ لاحَموني بَعدَ جَهدٍ وَفاقَةٍ ∴ كَما لاحَمَ العَظمَ الكَسيرَ جَبائِرُه[1]

إلى غير ذلك من أبيات يعتذر فيها لنفسه وللممدوح .

الصورة الثانية: قطع الطمع من الغير:

وهذا يظهر في قصيدة أخرى يمدح فيها – أيضاً – بغيضاً، وينتقص من الزبرقان ويهجوه، وهي تحمل معاني القصيدة السابقة، وتنتهج الأسلوب نفسه، حيث يقول:

أَزمَعتُ يَأساً مُبيناً مِن نَوالِكُمُ ∴ ولَن تَرى طارِداً لِلحُرِّ كَالياسِ [2]

وهنا يظهر أمران:

الأول: أن اليأس من الطمع في الزبرقان لعزة النفس في داخله، وليس لقلة رفده وعطائه، فعطاؤه ونواله كثير؛ ولذلك جاء به في صيغة الجمع (نوالكم) وإنما كان هذا – كما قلت – لعزة نفسه الحرة الأبية (طارداً للحر..).

الأمر الثاني: البت في قطع الطمع وعدم التردد، وكأنه قرار حازم حاسم، لا رجعة فيه، يدل على هذا تنكير " يأساً " ووصفه بأنه " مبين " والنفي بـ " لن " مما يدل على قوة العزم .

---

(١) ديوان الحطيئة، حمدو طماس صـ٦٠، ٦١ .
(٢) السابق صـ٨٥ .

ونلاحظ هنا أنه بدأ البيت باليأس من النوال، وختمه باليأس منهم أيضاً وهذا يدل على شدة العزم والتصميم على صـــون النفس، ولذلك عبّر بالطرد " طـــارداً " وفيه من القوة والعنف، وعدم العودة ما فيه .

وقد كان الحطيئة موفقاً حين اختار كلمة "اليأس" وكررهـــا؛ لأن " اليـــأس نقيض الرجاء، بل هو انقطاع الرجاء، فاليأس يقطع الرجاء رأســاً لما فيــه مــن الجزم دون التظنين؛ لذا جاء مع الكافــر؛ لأنه منقطع إلى الشر متصل به { وَلَــئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ } [١]، أما القنوط فهو اليأس من الخير خاصة، لذا جاء مقترناً في القرآن الكريم باليأس من رحمة الله وفضله . قال تعالى: { وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ } [٢]، وقــال: { لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ } [٣]، وقال: { قَــالَ وَمَــن يَقْــنَطُ مِــن رَّحْمَــةِ رَبِّــهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ } [٤] " [٥] .

ونلاحظ – أيضاً – حينما نربط هذا البيت بما قبله، وبما بعده، نجد أنه بدأ بوفائه هو، وأنه على صواب فيما فعل، وقد أقسم على هذا ليؤكد كلامــه ويقويــه، فيقول:

وَاللَهِ ما مَعشَرٌ لاموا اِمرَأً جُنُباً ∴ في آلِ لَأيِ بنِ شَمّاسٍ بِأَكياسِ [٦]

وهذا البيت جاء في مفتتح القصيدة؛ وكأنه يؤكد به صدقه في كل ما سيأتي.

ثم يحتج لنفسه، ويبين وفاءه فيقول:

وَقَــد مَــدَحتُكُمُ عَمــداً لِأُرشِــدَكُم ∴ كَيما يَكونَ لَكُم مَتحــي وَإِمراســي

---

(١) سورة: هود، آية [٩] .

(٢) سورة: الشورى، آية [٢٨] .

(٣) سورة: الزمر، آية [٥٣] .

(٤) سورة: الحجر: آية [٥٦] .

(٥) دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني صـــ٢١١، ٢١٢ .

(٦) ديوان الحطيئة، حمدو طماس صـــ٨٤ .

وَقَد نَظَرتُكُمُ إِعشاءَ صادِرَةٍ ∴ لِلخَمسِ طالَ بِها حَبسي وَتَنّاسي

فَما مَلَكتُ بِأَن كانَت نُفوسُكُمُ ∴ كَفارِكٍ كَرِهَت ثَوبي وَإِلباسي[1]

وهذا شبيه بقوله في القصيدة السابقة:

وكنت كذات البعل ذارت بأنفها .. [2]

ولكنه في هذه القصيدة نسب البغض للزبرقان: (كانت نفوسكم كفارك كرهت) وشبهه بالمرأة المبغضة لزوجها .

ثم ثلث بإكرام النفس عند مشارفة بدء الهوان، كما يظهر في قوله:

لَمّا بَدا لِيَ مِنكُم غَيبُ أَنفُسِكُم ∴ وَلَم يَكُن لِجِراحي مِنكُمُ آسي [3]

ثم جاء بعد ذلك بالجزم والعزم على قطع الطمع:

أَزمَعتُ يَأساً مُبيناً مِن نَوالِكُمُ ...

ثم ختم بالافتخار بذاته فقال:

أَنا اِبنُ بَجدَتِها عِلماً وَتَجرِبَةً ∴ فَسَل بِسَعدٍ تَجِدني أَعلَمَ الناسِ [4]

وهذا هو نهج القصيدة السابقة وأسلوبها في التعزز والترفع عن الدنايا، والابتعاد سريعاً عن مواطن الذل والهوان، وقد يكون تشبع القصيدتين بسمو النفس وتعززها يرجع إلى التخوف من عظم الجرم في الإساءة لمن أحسن إليه، ومن ثمّ بالغ في الاحتجاج عن نفسه بصور شتى، سواء من الإقامة على العهد ... أو طول

---

(١) ديوان الحطيئة / حمدو طماس صـ٨٥ .

معاني الكلمات: نظرتكم: ارتقبتكم. أعشاء: جمع مفرده عشاء، والإبل التي صدرت للخمس تتعشى عشاء طويلاً. التنساس: تفعال من التنس وهو السوق أيضاً. الفارك: هي المرأة المبغضة لزوجها. كرهت ثوبي: أي كرهت أن تدخل معي في ثوبي وأن تدخلني في ثوبها. آسى: المداوي.

(٢) ديوان الحطيئة، حمدو طماس صـ٥٨ .

(٣) السابق: صـ٨٥ .

(٤) السابق: صـ٨٥ .

الانتظار وعدم التعجل، وأن البغض كان من الزبرقان، كل ذلك ليدلل على تعززه وترفعه عن الدنايا والنقائص، وقد كرر هذه المعاني في القصيدتين، وفي كل القصائد – تقريباً – التي مدح بها بغيضاً .

الصورة الثالثة: الرضا بالجوع والتعزز في البعد، عن الشبع والهوان في القرب :

إذا كان المشهور السائد عن الحطيئة تدني النفس وإذلالها في مقابل المال والطعام، وأنه يسأل كل شيء، ويرضى بأقل القليل .

ولكن هناك وجه آخر للحطيئة، نراه فيه متعززاً، يفرّ ويبتعد عن مواطن الهوان وإن كان فيها الشبع والطعام، ويرضى بالجوع والمسغبة لأن فيهما المعزّة والكرامة .

يقول من القصيدة التي يمدح بها بغيضاً ويعرّض بالزبرقان، بعد أن ذكر توليه لمجرد خشية الهوان فيقول:

وَأَكرَمتُ نَفسي اليَومَ مِن سوءِ طُعمَةٍ ∴ وَيَقنى الحَياءَ المَرءُ وَالرُمحُ شاجِرُه [1]

فهو هنا يبرهن على تعززه وترفعه عن مواطن الهوان والمذلة، بأنه يكرم نفسه ويحفظها مما ينتقص من عزتها ورفعتها، وإذا كان الحطيئة في المظهر الثاني قد تولى قبل أن يقع به الهون، فهنا أكرم نفسه قبل أن يتذوق طعام السوء، فهو يحسم أمره، ويربأ بنفسه قبل وقوع الفعل، وكأني به ناظر إلى حكم ووصايا أستاذه زهير حينما قال:

وَمَن يَغتَرِب يَحسِب عَدُوّاً صَديقَهُ ∴ وَمَن لا يُكَرِّم نَفسَهُ لا يُكَرَّمِ [2]

والحطيئة يدلل – أيضاً – على أنه تولى وأكرم نفسه من المذلة والمهانة رغم شدة حالته، ويجسد لنا هذه الحالة المعنوية (سوء الحال) بصورة حسية

---

(١) ديوان الحطيئة، حمدو طماس صـ٥٨، سوء طعمة: أي سوء مكسب. يفنى الحياء: أي يلزم ويحفظ .

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى صـ٧٠، اعتنى به وشرحه: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط: الثانية ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

مشاهدة، ومؤلمة، وهي من البيئة، وذلك في قوله: (وَيَقنى الحَياءَ المَــرءُ وَالــرُمحُ شاجِرُه) أي يلزم المرء الحياء، وإن كان مطعوناً بالرمح، وهو يتأسى في ذلك بابن قبيلته، عنترة العبسي في قوله:

حَكِّــم سُــيوفَكَ فــي رِقــابِ العُــذَّلِ ∴ وَإِذا نَزَلــتَ بِــدارِ ذُلٍّ فَارحَــلِ
لا تَســقِني مــاءَ الحَيــاةِ بِذِلَّــةٍ ∴ بَل فَاسقِني بِــالعِزِّ كَــأسَ الحَنظَــلِ
مــاءُ الحَيــاةِ بِذِلَّــةٍ كَجَهَــنَّمٍ ∴ وَجَهَــنَّمٌ بِــالعِزِّ أَطيَــبُ مَنــزِلِ[1]

وهكذا نجد عنترة يقارن بين العزة والذلة، ويفضل العزة، وإن كانت فيها الهلكة، وكذلك الحطيئة يفضلها، وإن شارف على الهلاك (والرمح شاجره) .

ويبدو أنه وضع نصب عينيه صورة عنترة المكافح في سبيل العزة، فهو يحمل نفس حرٌ، وإن بدا في صورة عبد أسود، ولذلك يقول:

فَاِقِني حَياءَكِ لا أَبا لَكِ وَاِعلَمي ∴ أَنّي اِمرُؤٌ سَأَموتُ إِن لَم أُقتَلِ[2]

وناظر إلى قولهم – أيضاً – في المثل: " خلاؤكَ أقنى لحيائك " [3] .

فالحطيئة يبتعد عن مواطن المذلة تعززاً، ومروءة منه (المرء) كما فعل ذلك عنترة، وكما يفعل كل الأحرار الأعزاء .

ومما يدل على تعززه ورضاه بالجوع – أيضاً – وفراره من المذلة، قوله يهجو عيينة وخارجة ابني حصن بن حذيفة بن بدر:

---

(١) شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزي صـ١٣٤، ١٣٥، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه: مجيد طراد، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م .

(٢) السابق: صـ١٢٨ .

(٣) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري: ١ / ٣٤٢، ضبطه وكتب هوامشه ونسقه: د/ أحمد عبد السلام – خرج أحاديثه: أبو هاجر محمد سعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

حَمِدتُ إِلَهي أَنَّنـــي لَـــم أَجِـــدكُما ∴ مِنَ الجوعِ مَأوىً أَو مِنَ الخَوفِ مَهرَبا
تَباعَدتُ حَتّـــى عَيَّرانِـــيَ بَعـــدَما ∴ تَقَرَّبتُ حَتّـــى عَيَّرانـــي التَقَرُّبـــا (١)

فإذا كان في النموذج السابق يذكر أنه أكرم نفسه، فهنا يحمد ربه في أنه لم يجد في المهجوين مأوى، أو يجد فيهما من الخوف مهربا، ولذلك نأى بنفسه وابتعد سريعاً، بعد أن ظن فيهما خيراً، فتقرب منهما .

ونلاحظ أنه قال: " تباعدت " ولم يقل – مثلاً – بعدت، لما في التباعد مـــن مبالغة في البعد، وكأنه وصل إلى أقصى ما في البعد، بعد أن كان قريباً جداً، كمـــا يفيد قوله " تقرّبت " وكأنه يقصد في كل حال أقصاه، سواء في البعد أو في القـــرب وهذا من التعزز، وحفظ النفس المبالغ فيه .

كما أن في إسناد التباعد إلى نفسه " تباعدت " ما يدل على اختياره هو لهذا البعد، وأنه اختار البعد مع حاجته للمال والمأوى، لإكرام نفسه والحفاظ على عزته ... رغم شدة الحاجة .

---

(١) ديوان الحطيئة، حمدو طماس صـــ٢٢، ٢٣ .

(٣) صور التجلد والتماسك

وقد ظهر هذا التجلد والتماسك في ثلاث صور :

الصورة الأولى: التجلد والتماسك في الحب .

الصورة الثانية: التجلد والتماسك في الحرب .

الصورة الثالثة: الصبر على أذى الأهل والعشيرة .

الصورة الأولى: التجلد والتماسك في الحب :

من شيم العرب وعاداتهم أنهم يتجلدون أمام الناس ويتماسكون، حتى لا يشمت بهم شامت، نجد هذا عند أبي ذؤيب الهذلي في قوله:

وَتَجَلُّدي لِلشامِتينَ أُريهِمُ ∴ أَنّي لَرَيبِ الدَهرِ لا أَتَضَعضَعُ [١]

وكذلك يتجلدون في الحب ويتماسكون ترفعاً وتسامياً أمام الناس أيضاً، ومن ذلك تسامي أبي فراس الحمداني في قوله:

أَراكَ عَصِيَّ الدَمعِ شيمَتُكَ الصَبرُ ∴ أَما لِلهَوى نَهيٌ عَلَيكَ وَلا أَمرُ
بَلى أَنا مُشتاقٌ وَعِندِيَ لَوعَةٌ ∴ وَلَكِنَّ مِثلي لا يُذاعُ لَهُ سِرُّ
إِذا اللَيلُ أَضواني بَسَطتُ يَدَ الهَوى ∴ وَأَذلَلتُ دَمعاً مِن خَلائِقِهِ الكِبرُ [٢]

فهو أمام الناس عصي الدمع، متماسك جلد، ولكن حينما يخلو بنفسه، يلفه الظلام يصير على شجيته فتتساقط دموعه .

وهذا التسامي نراه عند الحطيئة، ومن ذلك قوله في قصيدة يمدح بها بغيضاً وقومه، ويعرّض بالزبرقان، ويهجوه ويسوق الحجج والبراهين التي تدلل على أنه

---

(١) ديوان أبي ذؤيب الهذلي صـ٥٠، تحقيق وتخريج: أحمد خليل الشال، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، بور سعيد، ط: الأولى ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م .

وينظر: ديوان الهذليين: ١ / ٣، المحقق: أحمد زين، محمود أبو الوفا، الناشر: دار الكتب العلمية ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م .

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني صـ١٦٢، شرح: خليل الدويهي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الثانية ١٤١٤هـ ١٩٩٤م .

لم يترك الزبرقان ويتخلى عنه، وكذلك ممدوحه بغيض، وإنما المتخلى والمعرض هو الزبرقان، يقول فيطلع هذه القصيدة:

وَقَد قالَت أُمامَةُ هَل تَعَزّى ∴ فَقُلتُ أُمامَ قَد غُلِبَ العَزاءُ

إِذا ما العَينُ فاضَ الدَمعُ مِنها ∴ أَقولُ بِها قَذىً وَهُوَ البُكاءُ[1]

في كل مدائحه لبغيض تظهر صورة أمامة، وهي تشفق عليه وتنصحه بالصبر والتعزي مثل قولها قبل ذلك:

قالَت أُمامَةُ لا تَجزَع فَقُلتُ لَها ∴ إِنَّ العَزاءَ وَإِنَّ الصَبرَ قَد غُلِبا [2]

فنراه يكرر الحوار مع أمامة بألفاظه وأحداثه . وهنا قد غلبه البكاء، ولكنه يتسامى ويتجلد، فيبين أن هذا من ألم وقذى سقط في عينه، وليس من العشق والهوى، وهذا من شيم الفرسان، وإن كان نزول الدمع منه محققا (وهو البكاء) ولكنه يحاول أن يجد المبرر، وهو القذى .

ومن تجلده وتماسكه في الفراق قوله:

فَتَبادَرَت عَيناكَ إِذ فارَقتَها ∴ دِرَراً وَأَنتَ عَلى الفِراقِ صَبورُ [3]

فهو هنا يثبت أمرين:

الأول: ذرف الدموع بسبب الفراق، وهذا ما أثار دهشته وعجبه .

الأمر الثاني: صبره المحقق على الفراق: وأنت على الفراق صبور .

وهنا نجد أنه ساق الكلام على الإسمية، للدلالة على ثبات صبره ولزومه . ثم نجد كلمة " على " التي تفيد الاستعلاء، والتمكن وغلبته للجزع والفراق .

ولكن يؤخذ عليه أنه في الصورتين السابقتين فاضت دموعه بغزارة: فاض الدمع منها، فتبادرت عيناك .. وهذا يقلل من التسامي، وكان الأولى به أن يكون كابي ذؤيب تجلداً، أو كأبي فراس الحمداني، عصيّ الدمع، ليس للهوى عليه نهي أو أمر .

---

(١) ديوان الحطيئة، حمدو طماس صـ١٣ .

(٢) السابق صـ١٩ .

(٣) السابق صـ٦٣ .

الصورة الثانية: التجلد والتماسك في الحرب:

السمت السائد الذائع عن الحطيئة هو الخنوع والخضوع، والانكفاء على الذات يرضى بأن يُطعم ويُسقى وهو جالس في مكانه وبين زوجه وأولاده ...

ولكنه أحياناً يتسامى فنراه ابناً للحرب، مسعّراً لها، يتجلد فيها ويرعد ويبرق، ومن ذلك قوله في هجاء بني بجاد من بني عبس [وهو بجاد ابن مالك بن غالب بن قطيعة] وهو من أبناء عمومته، فيقوله:

وَكُنّا إِذا دارَت عَلَيكُم عَظيمَةٌ ∴ نَهَضنا فَلَم يَنهَض ضِعافٌ وَلا ضُجُر
وَنَحنُ إِذا ما الخَيلُ جاءَت كَأَنَّها ∴ جَرادٌ زَفَت أَعجازَهُ الريحُ مُنتَشِر
إِذا الخَفِراتُ البيضُ أَبدَت خِدامَها ∴ وَقامَت فَزالَت عَن مَعاقِدِها الأُزُر
نُحامي وَراءَ السَبيِ مِنكُم كَما حَمَت ∴ أُسودٌ ضَوارٍ حَولَ أَشبالِها هُصُر
عَلى كُلِّ مَحبوكِ المَراكِلِ سابِحٍ ∴ إِذا أُشرِعَت لِلمَوتِ خَطِّيَةٌ سُمُر
مَطاعينُ في الهَيجاءِ بيضٌ وُجوهُهُم ∴ إِذا ضَجَّ أَهلُ الرَوعِ ساروا وَهُم وُقُر
فَأَمّا بِجادٌ رَهطُ جَحشٍ فَإِنَّهُم ∴ عَلى النائِباتِ لا كِرامٌ وَلا صُبُر
إِذا نَهَضَت يَوماً بِجادٌ إِلى العُلى ∴ أَبى الناشِئُ المَوهونُ وَالأَشمَطُ الغُمُر
تُدَرّونَ إِن شُدَّ العِصابُ عَلَيكُمُ ∴ وَنَأبى إِذا شُدَّ العِصابُ فَلا نَدُر[1]

يدافع الحطيئة وقومه عن بني عمهم بجاد ونسائهم، ونرى هنا جلجلة وصلصلة، وعظمة، ولذلك أكثر من ضمائر المتكلم المعظم لنفسه (وكنّا – نهضنا – ونحن – نحامي – ونأبى – لا ندر ..)

كما نلاحظ أيضاً أنه بنى الكلام كله – تقريباً – على الشرط والجزاء، وجاء بأداة الشرط (إذا) التي تفيد الشرط والجزاء: (وكنا إذا دارت ... نهضنا)، (ونحن

(1)ديوان الحطيئة، حمدو طماس صـ٨١، ٨٢ .

إذا ما الخيل جاءت .. إذا الخفرات .. نحامي)، (على كل محبوك .. إذا أشرعت .. مطاعين في الهجاء)، (إذا ضج أهل الروع، إذا نهضت يوماً ... أبى الناشئ، وتأبى إذا شد العصاب) .

وكأنه أراد أن يثبت أمرين:

– الأول: تخاذل بجاد ورهطه (دارت عليكم عظيمة، الخيل جاءت كأنها جراد، فأما بجاد رهط جحش .. إلخ) وهذا أمر محقق فيهم، حيث المذلة والصغار، وعدم الذود عن الأحساب والنساء .

– الأمر الثاني: أن شجاعة الحطيئة ورهطه، وتجلدهم وتماسكهم، ودفاعهم عن بني عمهم، وعن نسائهم كالأسود الضواري، كل ذلك ثابت ومحقق ومتيقن – أيضاً – لا ينكره منكر، ولا ينازعهم فيه منازع . وكأننا نسمع هنا جلجلة عمرو بن كلثوم، واعتداده بقومه وعشيرته .

كما نلاحظ أيضاً أنه هوّل من أمر الحرب وعدتها وعتادها، فجعلها: (عظيمة – الهيجاء – النائبات ...) أما عدة الحرب عند عدوهم فكثيرة، فالخيل كالجراد المنتشر وهي صورة من البيئة الصحراوية مشاهدة ومنتشرة (الخيل جاءت كأنها جراد زرفت أعجازه الريح منتشر)، والخيول متنوعة ونشيطة (على كل محبوك المراكل سابح)، كذلك توجد الرماح الخطية (إذا أشرعت للموت خطية ...)

وهكذا أكثر من عتاد الأعداء ومن كثرتهم؛ ليبين أنه وقومه انتصروا على قوم أقوياء لديهم السلاح والخيل، وكل مقومات النصر؛ وليبين أيضاً مدى صبرهم وثباتهم حتى إنهم كالأسود الضواري، ثم أتى بقيد وهو أن لهذه الأسود أشبالها وعرينها .

وهكذا نجد الحطيئة – هنا – يتسامى ويتفاخر ويتعالى، وهذا مخالف لما شاع واشتهر عنه، فيبدو لنا بطلاً مغواراً، مقداماً، غير هيّاب ولا نكس .

الصورة الثالثة: الصبر على أذى الأهل والعشيرة .

المشهور عن الحطيئة أنه كان لا يصبر عن هجاء أحد، حتى إنه هجا نفسه وأمه وأباه وزوجه، وعمه .. فلم يسلم من لسانه أحد، ولذلك خافه الناس اتقاء شره .

ولكنه أحياناً يتسامى، فنراه يصبر على أذى الأهل والعشيرة، ويتحلم عليهم ويتحنن .

ومن ذلك قوله من القصيدة السابقة التي يهجو فيها بجاداً:

بَنـــي عَمَّنـــا إنَّ الركـــابَ بِأَهلِهـــا ∴ إذا سائَها المَـــولى تَـــروحُ وَتَبتَكِـــر
بَني عَمَّنا مـــا أَســـرَعَ اللَـــومَ مِـــنكُمُ ∴ إلَينا وَلا نَبغـــي عَلَـــيكُم وَلا نَجُـــر
وَنَشرَبُ رَنقَ الماءِ مِن دونِ سُـــخطِكُم ∴ وَلا يَستَوي الصافي مِنَ الماءِ وَالكَدِر
أَرى قَومَنـــا لا يَغفِـــرونَ ذُنوبَنـــا ∴ وَنَحنُ إذا مـــا أَذنَبـــوا لَهُـــمُ غُفُـــر
وَنَحـــنُ إذا جَبَّبـــتُمُ عَـــن نِســـائِكُم ∴ كَما جَبَّبَت مِن عِندِ أَولادِها الحُمُـــر
عَطَفنا العِتاقَ الجُردَ خَلـــفَ نِســـائِكُم ∴ هِيَ الخَيلُ مَسقاها زُبالَـــةُ أَو يُسُـــر
إذا أَجحَفَت بِالنـــاسِ شَـــهباءُ صَـــعبَةٌ ∴ لَها حَرجَفٌ مِمّـــا يَقِـــلُّ بِـــهِ القُتُـــر
نَصَبنا وَكـــانَ المَجـــدُ مِنّـــا سَـــجِيَّةً ∴ قُدوراً وَقَد تَشقى بِأَســـيافِنا الجُـــزُر
وَمِنّا المُحـــامي مِـــن وَراءِ ذِمـــارِكُم ∴ وَنَمنَعُ أُخراكُم إذا ضُـــيِّعَ الـــدُبُر[1]

أول ما يلفت النظر في هذه الأبيات أنه بدأها بقوله " بني عمنا " ثم كررها في بيتين متواليين، والأصل: يا بني عمنا، فنراه قد حذف أداة النداء، للدلالة علـــى قرب بني عمّه من نفسه ومن قلبه، حتى إنهم لقربهم الحسي والمعنوي، لا يحتاجون إلى أداة نداء؛ لأن أقل نداء يسمعهم، ثم أضافهم إلى نفسه " بني عمنا " وذكر صلة

---

(١) ديوان الحطيئة، حمدو طماس صـــ٨١، ٨٣ .

معاني الكلمات: المولى: ابن العم. نجر: من الجريرة وهي الذنب. الرنق: الكدر زبالـــة ويســـر: اسمان لموضعين بالبادية. الحرجف: هي الريح الباردة. السجية: العادة. الذمار: كل ما يحق على الرجل أن يحميه. ضيع الدبر: أي ضيعت أدبار المنهزمين، فلم يكن أحد يحميها .

الرحم (العم) كل هذا للدلالة على الرحمة والشفقة والتودد إليهم، ولذلك جاء بعــده مباشرة: ونشرب رنق الماء من دون سخطكم ...

وهذا دلالة على قبول أعذارهم، والخوف من سخطهم، والحــرص علــى إرضائهم، وعدم إغضابهم (ما أسرع اللوم منكم إلينا ولا نبغي عليكم ولا نجــر)، (ونشرب رنق الماء من دون سخطكم)، ولذلك هو يعجب مــن أن بنــي عمــه لا يغفرون ذنوبهم، رغم أنهم يغفرون لهم .

وهو يتبين في كل ذلك تحمله لأذى بني عمه، ولذلك أضافهم إليه أيضاً في قوله: " قومنا " ثم يبين كرمه وحمايته لأبناء عمومته وأهله، وأن هذا الفعل ســجية فيهم وطبع، وليس تكلفاً وتصنعاً .

وهذا يدل على تساميه وصبره على الأهل، وتحمل الأذى منهم، وأنهــم لا يقابلون الإساءة بمثلها، وإنما بالمغفرة والصبر والإكرام .

وهذا مخالف لما عرف عنه وشهر به مما يدل على أنه يحاول أن يظهــر من نفسه من كرم الطباع وحسن الخلق غير الواقع وغير ما هو معروف به ممــا يدل على أن هذه الصفات التي ذكرها إنما هي من قبيل التسامي وإظهــار خــلاف الواقع والحقيقة .

(٤)صورة التغني بكرم الأصل

وقد جاء في صورتين:-

الصورة الأولى: كرم أصل الأب .

الصورة الثانية: كرم أصل القبيلة .

الصورة الأولى: كرم أصل الأب:.

إذا كان المشهور والذائع أن الحطيئة هجا أباه، وتنقص منه، ورأى فيه العجز والمهانة، إلا أنه تسامى فافتخر به، ورأى أنه سيّد كريم، ومن ذلك قوله لبني عوف بن عامر بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة، وزعموا أنه قدم الكوفة فنزل في بني جؤية رهطه، وكان يزعم أنه وأهل بيته من بني عوف هؤلاء، فجاء يسألهم بذلك:

سيري أُمامُ فَإِنَّ المالَ يَجمَعُهُ ∴ سَيبُ الإِلَهِ وَإِقبالي وَإِدباري

إِلى مَعاشِرَ مِنهُم يا أُمامُ أَبي ∴ مِن آلِ عَوفٍ بُدوءٌ غَيرُ أَشرارِ

نَمشي إِلى ضَوءِ أَحسابٍ أَضَأنَ لَنا ∴ ما ضَوَّأَت لَيلَةُ القَمراءِ لِلساري[1]

الحطيئة كعادته تحضر معه أمامة في الأمور المهمة، فيخاطبها ويحاورها، وأحياناً تعزيه وتسليه، وهنا نراه يتخلى عن المال وحبه، ويبين لها أن المال له طرقه الخاصة بجمعه، وهي أنه، أولاً: من عند الله وعطائه . وثانياً: من جهد الإنسان وكدّه واجتهاده، وإقباله وإدباره .

ولكنه هنا يبحث عن شيء آخر، أغلى من المال وجمعه؛ إنه الحسب والمحتد والأصل والأرومة .

وهنا يتخلى عن الصورة الحسية، وتظهر الصورة المعنوية، والشيم الرفيعة، فيطلب منها السير إلى معشر منهم أبوه، وهنا نجد التغني بالأدب، ولذلك خصه بالذكر دون أحد من قومه، ثم أضافه إلى نفسه (أبي) ولا تخفى دلالة الأبوة

---

(1) ديوان الحطيئة، حمدو طماس صـ٧٢ .

معاني الكلمات: السيب: العطاء. البدوء: جمع بَدْء، وهو السيّد، يقال رجل بَدْءٌ من القوم: إذا كان سيداً رأساً . ينظر: ديوان الحطيئة بشرح ابن السكيت صـ٢٦٣ .

عند العربي القديم، وما فيها من رفعة النسب وصفائه ولذلك كانوا حينما يتفاخرون ينصون على ذكر الأبوة، ومن ذلك قول الفرزدق مفاخراً جرير:

أولَئِكَ آبائي فَجِئني بِمِثلِهِم ∴ إذا جَمَعَتنا يا جَريرُ المَجامِعُ [١]

وهذا ما ذكره قبل ذلك معاوية سيد بني كلاب حينما افتخر بأصله وحسبه فقال:

إنّي اِمرُؤٌ مِــن عُصــبَةٍ مَشــهورَةٍ ∴ حُشُــدٍ لَهُــم مَجــدٌ أَشَــمُّ تَليــدُ
أَلفَــوا أَبــاهُم سَــيِّداً وَأَعــانَهُم ∴ كَــرَمٌ وَأَعمــامٌ لَهُــم وَجُــدودُ
إِذ كُــلِّ حَــيٍّ نابِــتٌ بِأَرومَــةٍ ∴ نَبتَ العِضــاهِ فَماجِــدٌ وَكَســيدُ [٢]

فنراه يبدأ بالأب، وهذا دلالة على كرم الأصل، واعتزازه بنسبه وأرومته . وكذلك حينما كانوا يعظمون التضحية، يذكرون الأب، ومن ذلك قول حســان بــن ثابت حينما كان ينافح عن النبي (ﷺ) ويدافع عنه:

فَإِنَّ أَبي وَوالِدَهُ وَعِرضي ∴ لِعِرضِ مُحَمَّدٍ مِنكُم وِقاءُ [٣]

وهذا ما فعله الحطيئة، حينما افتخر جعل صورة والده هي المتصدرة للمشهد .

ثم نرى الحطيئة يثبت لقومه أنهم سادة منذ القدم (بدوء) وينفي عنهم الشــر (غير أشرار) وإثبات هذا لقومه، إثبات لأبيه .

ثم يشير إلى أثر أبيه وقومه – المعنوي – في القبيلة، وفي الناس، فيبــين أنهم كالقمر الذي يهتدي به الساري ليلا، فلا يضل ولا يتخبط، وقــد روى البيــت الحصري في زهر الآداب فقال:

نَمشي إِلى ضَوءِ أَحسابٍ أَضَأنَ لَنا ∴ ما ضَوَّأَت لَيلَةُ القَمراءِ لِلساري[٤]

---

(١) شرح ديوان الفرزدق: ٢ / ٧٢ .

(٢) المفضليات للمفضل الضبي [مفضلة رقم ١٠٤] صــ٣٥٥، تحقيق: أحمد محمــد شــاكر، عبدالسلام محمد هارون، الناشر: دار المعارف، ط: السادسة، من دون تاريخ .

(٣) ديوان حسان بن ثابت صــ٢١ .

(٤) زهر الآداب وثمر الألباب للحصري القيرواني: ٢ / ٥٥٢، تحقيق: زكي مبارك، محمد محي الــدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، ط: الرابعة، من دون تاريخ .

وعندي هو الأصوب فـ (على) تؤدي معنى أقوى وأعمق، فكأنهم وصلوا إلى أمجاد عالية، يسيرون عليها، وهذا يدل على التمكن والاستعلاء، وفي قوله: (كما ضوأت الليلة القمراء للساري) ما يدل على نفعهم لقومهم وللناس، فهم يرشدون الحيارى، ويهدون الضالين، وهذا ما ذكره أبو الطمحان القيني قبل ذلك في قوله:

أَضاءَت لَهُم أَحسابُهُم وَوُجوهُهُم ∴ دُجى اللَيلِ حَتّى نَظَّمَ الجَزعَ ثاقِبُه [١]

الصورة الثانية: صورة كرم أصل القبيلة:

إن الحطيئة لم يسلم – كما قلت – من لسانه أحد، وممن هجاهم قومه فقال:

لَعَمري لَقَد جَرَّبتُكُم فَوَجَدتُكُم ∴ قِباحَ الوُجوهِ سَيِّئي العِذَراتِ
لَهُم نَفَرٌ مِثلُ التُيوسِ وَنِسوَةٌ ∴ مَماجينُ مِثلُ الآتُنِ النَعِراتِ
وَجَدتُكُمُ لَم تَجبُروا عَظمَ هالِكٍ ∴ وَلا تَنحَرونَ النيبَ في الحُجُراتِ
فَإِن يَصطَنِعني اللَهُ لا أَصطَنِعكُمُ ∴ وَلا أوتِكُم مالي عَلى العَثَراتِ [٢]

ومع ذلك، نراه يتسامى فيفتخر بقومه، ويتغنى بخصالهم الحميدة، ومن ذلك قوله وهو يصرف نسبه إلى بكر بن وائل:

قَومي بَنو عَمروِ اِبنِ عَو ∴ فٍ إِن أَرادَ العِلمَ عالِم
قَومٌ إِذا ذَهَبَت خَضا ∴ رِمُ مِنهُمُ خَلَفَت خَضارِم
لا يَفشَلونَ وَلا تَبي ∴ تُ عَلى أُنوفِهِمُ الخَواطِم [٣]

---

(١) قصائد جاهلية نادرة، د/ يحيى الجبوري صـ٢١٨، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الثانية ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

(٢) ديوان الحطيئة، حمدو طماس صـ٢٨ .

معاني الكلمات: العذرات: الأفنية، يريد أنهم يتغوطون في أفنيتهم. الآتن النعرات: أي تكن جامحات لا قرار لهن .

(٣) ديوان الحطيئة، حمدو طماس صـ١٤٢، ١٤٣ .

الخضرم: ذو المعروف الكثير بين الناس، ويوصف به البحر أيضاً. لا يفشلون: أي لا يجبنون ولا يضعفون. الخواطن: جمع مفرده خاطمة، وهي ما يخطم بها الأنف.

يتغنى الحطيئة في هذه الأبيات بكرم أصل قومه، وقد أضافهم إلى نفسه (قومي) ثم فصّلهم بعد أن أجملهم فقال: (بنو عمرو بن عوف)، وقد جاءت الأبيات كلها مدوّرة: [عو..ف]، [خضا..رم]، [تبي..ت] وهذا يدل على تزاحم المعاني وغزارتها، واتصال الجمل وتواصلها، وما ذلك إلا لشعوره بالفخر والعزة، وهذا الأصل الكريم لا ينكره أحد . ثم يثبت لهم ما يرفع من شأنهم، ويبعد عنهم المذمة والمهانة، فيبين أنهم خضارم، أي كثيرو المعروف، وقد ورثوا الكرم كابراً عن كابر (إذا ذهبت خضارم منهم خلفت خضارم)، وقد أشار إلى هذا المعنى كثير من الشعراء، منهم لقيط بن زرارة الدارمي، حيث يقول:

وَإِنّي مِنَ القَومِ الَّذينَ عرفتهمُ ∴ إذا ماتَ مِنهُم سَيِّدٌ قامَ صاحِبُه
نُجومُ سَماءٍ كُلَّما غابَ كَوكَبٌ ∴ بَدا كَوكَبٌ تَأوي إِلَيهِ كَواكِبُه[1]

ومن ذلك قول طفيل الغنوي يرثي فرسان قومه:

كَواكِبُ دَجنٍ كُلَّما غابَ كَوكَبٌ ∴ بَدا وَاِنجَلَت عَنهُ الدُجُنَّةُ كَوكَبُ [2]

ونلاحظ أن الحطيئة لم يقل كرماء – مثلاً – وإنما قال: " خضارم " وجاء به على صيغة الجمع، للدلالة على الكثرة والتوالي والتتابع كموج البحر، فيقال للبحر خضرم، وللبئر خضرم: كثيرة الماء .

ثم ينفي عنهم الجبن والضعف، واللؤم والعار (لا يفشلون ولا تبين على أنوفهم الخواطم) وخص الأنوف لأنها رمز للعزة والفخر، ولذلك يقولون: جدع أنفه، ورغم أنفه للدلالة على المهانة والصغار، كما يقولون حمى أنفه للدلالة على المنعة والعزة، ومنه قول عمرو بن براق:

---

(1) ديوان لقيط بن زرارة الدارمي صـ٢٠، من دون تاريخ .

(2) ديوان طفيل الغنوي صـ٥٤، شرح الأصمعي، تحقيق: حسان فلاح أوغلي، دار صادر، بيروت، ط: الأولى ١٩٩٧م .

مَتى تَملك القَلبَ الذَكِيَّ وَصارِماً ∴ وَأَنفاً أَبِيّاً تَجتَنِبكَ المَظالِمُ [١]

ونلاحظ أن الحطيئة ترقى في الصفات الكريمة، والخلال الحميدة التي أثبتها لقومه، فأثبت لهم أولاً كثرة المال وكثرة العطاء، ثم نفى عنهم الجبن، ثــم نفــى – أيضاً – عنهم اللؤم والعار، فانتقل من الصفات الحســية (المــال) إلــى الخصــال المعنوية (نفي الجبن واللؤم .. إلخ) .

وهكذا نجد الحطيئة يتغنى بقومه، وكرم أصلهم، وهذا من التسامي والتعالي الذي يمثل زاوية خافيةٍ خافتة، لم تسلط عليها الأضواء من النقاد والرواة .

(١) ديوان الشنفري، ويليه ديواناً: السليك بن السلكة، وعمرو بن براق صــ١٠٩، إعداد وتقــديم: طلال حرب، دار صادر، بيروت، ط: الأولى ١٩٩٦م .

الخـــاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .. وبعد

فقط طوّف بنا البحث في صور التسامي عند الحطيئة حتــى وصــل إلــى مرفئه الأخير، بفضل الله وعونه، وقد توصل إلى عدة نتائج من أهمها:-

(١) أن هناك وجهاً آخر للحطيئة غير المشتهر عنــه مــن ســلاطة اللســان، والخوض في الأعراض، وتجلى ذلك في أنه حــاول أن يتســامى، فســاق الحجج والبراهين التي ينفي بها عن نفسه الغدر والخيانة للزبرقان، فــذكر أنه وفىَّ، لمن لا يستحق كالذئب والصاحبة الغادرين، فمن الطبيعي أن يفي لمن أكرمه وهو بغيض .

(٢) بيّن البحث أن الحطيئة حاول أن يتسامى – أيضاً – فأظهر أنه يحمل بــين جنبيه نفساً أبيّة، تغار على الأهل والعشيرة، وتأبى الذل والهوان، وترضى بالجوع في كنف العزة، عن الشبع في دركات الذل والهوان .

(٣) بيّن البحث – أيضاً – أن الحطيئة تسامى، فجلجــل بالشــجاعة، وتغنّــى بالبطولة في الحروب؛ مدافعاً عن قومه وعشيرته، وكأنه يتقمص شخصية عنترة العبسي .

(٤) تغنى الحطيئة بكرم أصل الأب والقبيلة، وهذا يخالف ما شاع واشتهر عنه من هجائهم، وهجاء نفسه أيضاً .

المصـــادر والمـراجـع

** القرآن الكريم (جل من أنزله) .
(١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق: د/ إحسان عبـــاس، د/ إبـــراهيم السعافين، الأستاذ/ بكر عباس، دار صادر، بيـــروت، لبنـــان، ط: الثالثـــة ١٤٢٩هـــ ٢٠٠٨م.
(٢) بنية الصورة الفنية في شعر الحطيئة، إعداد: سمية الهادي، مذكرة مقدمـــة لنيل الماجستير، جامعة المسيلة، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم اللغة العربية وآدابها ٢٠٠٧ / ٢٠٠٨م .
(٣) تاريخ الأدب العربي – العصر الإســـلامي، د/ شـــوقي ضـــيف، ط: دار المعارف، ط: العشرون ٢٠٠٢م .
(٤) تجريد الأغاني لابن واصل الحموي، تحقيق: د/ طـــه حســـين، إبـــراهيم الأبياري، مطبعة مصر ١٣٧٤هـــ ١٩٥٥م .
(٥) التسامي SUBLIMATION – عصام محمود ١٤ ديســـمبر ٢٠٠٩م – منتدى الوطن والمهجر (اليكتروني) .
(٦) التسامي في السلوك.. قوة للنفس والإنسان، د/ أسعد الإمارة، ط: مؤسســـة الحوار المتمدن، العدد ١٢٦١ – ٢٠٠٥م (موقع إليكتروني).
(٧) التسامي: رفعة وصفاء – موقع: عالم الأمل .
(٨) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، ضبطه وكتب هوامشـــه ونســـقه: د/ أحمد عبد السلام، خرج أحاديثه: أبو هاجر محمد سعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى ١٤٠٨هـــ ١٩٨٨م .
(٩) حديث الأربعاء، د/ طه حسين، ط: دار المعـــارف، ط: الرابعـــة عشـــرة ١٩٩٣م .
(١٠) الحطيئة .. وجه مختلف / من ديوان العرب، إبراهيم النويري، مركز النور للدراسات، جميع الحقوق محفوظة ٢٠٠٨م (اليكتروني) .

(١١) الحطيئة شاعر المدح والهجاء، يوسف بذّور، العروبة: العــدد ١٤٤٤٩ – يومية – سياسية، تصدر عن مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعــة والنشــر والتوزيع حمص (اليكتروني) .

(١٢) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر البغدادي، تحقيق وشــرح: عبدالسلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخــانجي بالقــاهرة، ط: الرابعــة ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

(١٣) دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، أطروحة تقدم بها: محمــد يــاس خضر الدورى إلى مجلس كلية التربية (ابن رشد) في جامعة بغداد، وهــي جزء من متطلبات درجة دكتوراه: فلسفة في اللغة العربية، لغة إشراف أد/ خليل بنيان الحسون ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

(١٤) ديوان أبي ذؤيب الهذلي، تحقيق وتخريج: أحمــد خليــل الشــال، مركــز الدراسات والبحوث الإسلامية، بور سعيد، ط: الأولى ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م .

(١٥) ديوان أبي فراس الحمداني، شرح: خليل الدويهي، الناشــر: دار الكتــاب العربي، بيروت، ط: الثانية ١٤١٤هـ ١٩٩٤م .

(١٦) ديوان أبي نواس، ط: دار صادر، بيروت، من دون تاريخ .

(١٧) ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، تحقيق: د/ نعمان محمد أمــين طه، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط: الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

(١٨) ديوان الحطيئة، اعتنى به وشــرحه: حمــدو طمّــاس، ط: دار المعرفــة، بيروت، لبنان، ط: الثانية ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

(١٩) ديوان الشنفري، جمعه وحققه وشرحه: د/ إميل بديع يعقوب، الناشــر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الثانية ١٤١٧هـ ١٩٩٦م .

(٢٠) ديوان الشنفري، ويليه ديواناً: السليك بن السلكة، وعمرو بن براق، إعــداد وتقديم: طلال حرب، دار صادر، بيروت، ط: الأولى ١٩٩٦م .

(٢١) ديوان المرقشيين (المرقش الأكبر، والمرقش الأصغر)، تحقيــق: كــارين صادر، ط: دار صادر، بيروت، ط: الأولى ١٩٩٨م .
(٢٢) ديوان النابغة الذبياني، اعتنى به: حمدو طمّاس، دار المعرفــة، بيــروت، لبنان، ط: الثانية ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .
(٢٣) ديوان الهذليين، المحقق: أحمد زين، محمود أبو الوفا، الناشر: دار الكتــب العلمية ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م .
(٢٤) ديوان جميل بثينة، دار صادر، بيروت، من دون تاريخ .
(٢٥) ديوان حسان بن ثابت، شرحه وكتب هوامشه وقدم له: عبدأ . مهنّــا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الثانية ١٤١٤هـ ١٩٩٤م .
(٢٦) ديوان حميد بن ثور، تحقيق: عبد العزيز الميمني، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتاب ١٣٧١هـ ١٩٥١م، الناشر: الدار القومية للطباعــة والنشــر، القاهرة ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م .
(٢٧) ديوان دريد بن الصمة، تحقيق: د/ عمر عبد الرســول، ط: دار المعــارف ١٩٨٥م .
(٢٨) ديوان زهير بن أبي سلمى، اعتنى به وشرحه: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط: الثانية ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .
(٢٩) ديوان شعر المتلمس الضبعي، رواية الأثرم، وأبي عبيدة عن الأصــمعي، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، جامعة الــدول العربية، معهد المخطوطات العربية ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م .
(٣٠) ديوان طفيل الغنوي، شرح الأصمعي، تحقيق: حسان فــلاح أوغلــي، دار صادر، بيروت، ط: الأولى ١٩٩٧م .
(٣١) ديوان لقيط بن زرارة الدارمي، من دون تاريخ .

(٣٢) زهر الآداب وثمر الألباب للحصري القيرواني، تحقيق: زكي مبارك، محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، ط: الرابعة، من دون تاريخ .

(٣٣) سلسلة أدباء وشعراء العرب: دراسة وتحليل، شبكة: أبجد: أول شبكة اجتماعية عربية لمحبي القراءة، حقوق الطبع . أبجد ٢٠١٤م (اليكتروني) .

(٣٤) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي لأبي العلاء المعري (معجز أحمد)، تحقيق: د/ عبد المجيد دياب، دار المعرفة، القاهرة، ط: الثانية ١٤١٣هـ ١٩٩٢م .

(٣٥) شرح ديوان أبي تمام للخطيب التبريزي، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه: راجي الأسمر، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الثانية ١٤١٤هـ ١٩٩٤م .

(٣٦) شرح ديوان الفرزدق، ضبط معانيه وشروحه وأكملها: إيليا الحاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، ط: الأولى ١٩٨٣م .

(٣٧) شرح ديوان صريع الغواني (مسلم بن الوليد)، عني بتحقيقه والتعليق عليه: د/ سامي الدهان (عضو المجمع العلمي العربي بدمشق) دار المعارف، ط: الثالثة ١٩٨٥م .

(٣٨) شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزي، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه: مجيد طراد، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م .

(٣٩) الشعر والشعراء لابن قتيبة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط: الثانية.

(٤٠) الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، ط: دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط: الرابعة ١٩٩٠م.

(٤١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، الناشر: دار المدني بجدة، من دون تاريخ.

(٤٢) العقد الفريد لابن عبد ربه، تحقيق: د/ مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م .

(٤٣) الفروق اللغوية لأبي الهلال العسكري، حققه وعلّق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، من دون تاريخ .

(٤٤) القاموس المحيط للفيروزآبادي، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، الناشر: دار الرسالة، ط: الثامنة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

(٤٥) قصائد جاهلية نادرة، د/ يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الثانية ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

(٤٦) الكامل للمبرد، حققه وعلق عليه وصنع فهارسه: د/ محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، ط: الثالثة ١٤١٨هـ ١٩٩٧م .

(٤٧) لسان العرب لابن منظور، صححه: أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبدي، ط: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط: الثانية ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

(٤٨) المفضليات للمفضل الضبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، عبدالسلام محمد هارون، الناشر: دار المعارف، ط: السادسة، من دون تاريخ .

(٤٩) مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، ط: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.